أحمد ضحية

الجزء الثاني

ثلاثية الأعتم

بن ابي ليل الظلامي

غَوَّايَةُ غُرَفِ النَّوْمِ

رواية

دار بسمة للنشر الإلكتروني

غَوَّايَةُ غُرَفِ النَّوْم

أحمد ضحية

اسم الكتاب: غَوّاية غرف النوم

اسم الكاتب: أحمد ضحية

نـوع العمل: رواية

عدد الصفحات: 156

التدقيق اللغوي: الكاتب أحمد ضحية

الرقم الدولي EBIN: 16-138-01-210812

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2021م / 1443هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاســـترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من المؤلف. ©

غَوَّايَةُ غُرَفِ النَّوْم

ثلاثية الاعتم بن ابي ليل الظلامي

الجزء الثاني

أحمد ضحية

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أهالي البلاد الأسيرّة،

وإلى وطن حُلُم،

لا يوجد سوى في الذاكرة..

بـدايـة

بعد أسبوع؛ كانت الهيف تجلس أمام الشاب النحيف الرّخو؛ بانتظار القائد دكَّام. وكانت تبحث في دخيلتها، عن أكثر الكلمات ملاءمة، لإبلاغه رفض صانع الفخار، مقابلته شخصياً.

فيما كان يحرّسها عن قُرب، الشاب النحيل الرّخو، الذي لم يكن يرفع نظره عن ساقيها الممتلئتين.. ساقي المرأة الجوّالة، ونهديها الواثقين؛ وهما يُمعنان في استفزازه؛ بإلحاحٍ يكاد يُفقده صوابه!

استبعدت الهيف من ذهنها الكلمات الفظة، الجافة، والكلمات شديدة التنميق، والباهتة التي لاكتها الألسن، من كثرّة الاستخدام، بوعودها التي لا تُنجز، واحتفظت فقط، بالكلمات القادرّة على ملامسة تفكير الرّجال القادة أمثاله، مستخدمةً غريزتها الأُنثوية، وكل المعارف التي اكتسبتها في حيّاة الخمارات، ومعارفها الخاصة جداً.. تلك التي تفتح وعيها عليها مع الخزين، وطائفة صانع الفخار المجيدة!..

دخل أحد العســـس الجنكويز، همس في أذن النحيف الرّخو، الذي طلب منها النهوض، ثم اقتادها إلى غرفة واســـعة، كان دكّام يجلس وسطها. وما أن رأت دكّام، حتى أحست بشعلة الحب التي أحست بها في لقاءها الأول به تتقد جذوتها أكثر فأكثر!

قالت له:

"قال إنه سيلتقي بك، لكن ليس شخصياً"

"ثم؟"

"سيلتقي أحد رجاله الموثوقين بك، أو بأحد رجالك الموثوقين"

ونظرت تجاه النحيف الرّخو. فكر دكّام قليلاً ثم قال:

"حسناً ابعثي إليه أننا سنرد عليه في أقرب وقت"

"شيء آخر.."

"ما هو؟"

"رسالة يجب ألا يسمعها أحد سواك"

وقبل أن يرد؛ دنت ببطءٍ شديد من أذنه، وانحنت لتُسر له بالرِّسالة. حينئـذ أحس دكَّـام برائحـةِ الحيوان البرّي، التي تفوح من الهيف، وبحرارّة الحرّيق؛ التي تشـع من ردفيها، والملامسـة الرّهيبة لشـعرها، وأنفاس النعنّاع؛ التي تهمس في أذنه، بالرِّسالة السرِّية.

ثم قالت وهي تبتعد عنه:

"هذا كل شيء".

ثم غادرت يرافقها النحيف الرّخو، حتى حافة الطريق.. فيما كان القائد دكَّام يُلاحقها بنظراته، من المدخل، دون أن يتوقف عن النظر إليها، مثل كلب فاقد الصـواب. ورأى النحيف الرّخو يمدَّ يده ليلمسـها، فأوقفته بسـيل من كلمات، بدت له من بعيد حاسمة.. قادرّة على قمعه، إذ كانت أشبه بتعويذة لعنة وثنية لا راد لقضائها!

غابت في نهاية الدرب، بعد أن تركت وراءها، خيطاً رفيعاً من الأمل، بقي عالقاً في فضاء المعسكر لعدة أيام، قُبيل مقتل النحيف الرّخو!

وفيما كان حضـورها الطاغي؛ يسـيطر على دكَّام طوال الوقت، كان الخيط الرفيع يغلظ ويحتقن، ويتسـلل وجدانه.. يقيده فيتفجر عن

الإحساس بالرّائحة البرّية، وحرّارة الحرِّيق، والملامسة الرّهيبة، وأنفاس النعناع..

فصار دكَّام يسير مثل منوَّم، وأدرك رجاله أن حياته ستنتهي، قبل أن يعتلي كرسي الامبراطورية، التي شارّفت شمسها على الأفول، على وقع سنابك خيول المغول الغازية، وصليل سيوفهم الظمأى للدم!

تأمل الخزين جُدرّان محبســـه المبقعة بالرطوبة، ومدّ رجليه على الأرض، بين الفئران والصراصير التي أخذت تنظر إليه في إشفاق.

نظر إلى الكوّة ذات القضـــبان الحديدية، التي تطل على منور تهوِّية، يقف في وســـطه طائر ود دبرك حزين! يزغزغ بكلام حول أن أوان الهروب قد آن.. كلام؛ يفهم الخزين بعضـــه؛ فيما يشـــبه الإلهام، وأكثرّه لا يفهمه!

على الجدار المقابل، اتكأ ظلٌ لشـيء؛ لم يتبين ملامحه بوضـوح. كان ظمآنا شـفتاه يابسـتين وعيناه جافتين، ويداه متسـختين، ومفاصـله صدئة، تصر كباب قديم؛ كلما حرك يديه أو قدميه!

وبدا له أن نبضه يطفر خبباً، وقصباته الرئوية تختنق لقلة الهواء، وكان يرى السقف كأنه يدنو ببطء ليطبق عليه؛ ويكتم أنفاسه إلى الأبد!

كان مخدراً من البرد، فحاول أن يدفئ يديه بأنفاسه. لكنه لم يستطع التنفس.. وهناك؛ في الرّكن، حيث الفار والصراصير ما زالوا ينظرون إليه، مخدرون مثله من البرد.

حرّك إحدى يديه، فقرَّب الفأر إحدى قائمتيه.. إنهما صـديقان منذ أسـابيع. فهو يرمي إليه أحياناً قطعة من وجبته البائسـة التافهة. التي كانت تجعل الفأر مع ذلك ممتناً.

وبالرغم من هذا كله، كان الخزين يفتقد بولاد، الذي لم يكن يدري، أن إحدى الطوائف السرِّية، التي نشطت داخل طائفة صانع الفخار الأم، هي التي فعلت بابنتيه الغصـــين وأم نفل ما فعلت. فرغم كل شـيء؛ كان بولاد يؤانس وحدته الموحشـة، لكنه كان يفتقد أم ضـي أكثر، بقدّها الرّشيق وكلامها الحاني الحلو.

مضـــى زمن طويل قبل أن يجتاحه الحنين إليها.. إلى نظرتها، غنائها، حضنها، مداعباتها، تأنيبها له على الغياب المتكرّر، وغفرانها.

يسمع الآن صوتها هامسا يتخلل مسام الجدران:

"وُلدت أمي في مزرعة شمال الحاضرّة، في مصب النّهر. حيث شببت عن الطوق وترعرعـت، أنتظر دوري في العمـل مع الفلاحين، في مزرعة الأمير.

الأمر نفســـه حدث من قبل مع أمي، التي بمرور الوقت تزوجت أحـدهم، وأنجبـت أطفـالاً، انتزع الأمير معظمهم منهـا.. واختطف الموت والمرض بعضـــهم الآخر، فيما بيع اثنين من أخوتي.. جميعهم اشقائي، فالأزواج الخمسة الذين تقلبت أمي بين احضانهم؛ لم تنجب منهم. أنجبت فقط من أبي.. آخر أزواجها قصيري العمر!..

ولم يبق لأمي ســـواي؛ بعد أن اختطفت الاقدار روح أبي، فبقيت وأمي وحيدتين.

كان أبي من العبيد الذين أحبهم الأمير، فمنحنه أمي زوجةً له. ولم تكن تلـك هي المرّة الأولى. فقبـل أبي؛ وهـب الأمير أمي لعبيـده الخمســـة؛ الذين تعاقبوا عليها في فترات متقاربة، قبل أن يموت أو يقتل أو يختفي كل منهم في ظروف غامضة!

ففي الأوقات التي تشتد فيها المؤامرات داخل قصـر الأمير، يتفادى الجميع السؤال، أو التحرّي عن أسباب حدوث اي أمر! فالقصور؛ عالمها أشبه برمال متحرّكة، لا ينجو من يطأها بقدميه!

في الوقت الذي وُلدت فيه، كانت جيوش أحفاد الخليفة العدل، بعد أن دالت الأيام ببني الأعتم؛ قد جاءت بمزيد من أبناء قوم أمي في جبل الرُّماة أسرى وسبايا، كما كانت تحكي لي أمي في الليالي حالكة الظلمة، وهي تهدهدني لأنام..

امتلأت وقتها أسواق الحاضرة، بالأرقاء الذين جلبتهم جيوش الغزو.. فيما احتقنت دواخلي بغضب لا حدود له، كلما خبت شعلته؛ تغذيه أمي بالقاء مزيد من الحكايات.. حكاياتنا عبيد وسبايا!

وهكذا انقضت سنوات عمري، وهي تجتر حكايات أمي؛ حتى بعد وفاتها بوقت طويل.. وتيرة واحدة، استيقظ في الصباح الباكر؛ قبل أن تنشر الشمس جدائلها، أمضي للعمل في الحقول ما بين انحناء ووقوف، مادامت الشمس تحرق كبد السماء.

وعندما يختفي ذلك القرص الذّهبي خلف بوابات السماء، ويعلن الخصي الذي يراقبنا بصوته الجهور، الذي يتردد صداه عبر الحقول نهاية يوم شاق، فاتجه كالآخرين، عائدة إلى ما أسميته بيتي في الطرف

الغربي لمزرعة الأمير، التي يتوسطها قصره الفاره. والذي يتحول في أيام الشتاء الرّطبة القارسة، إلى شعلة من الأضواء.

إذ تذبح الأغنام والعجول والطيور، فيرسل لي الطباخ شيخون بعضاً من تلك اللحوم، وفوقها قطع من الحلوى، وما تستطيع أن تلتقطه يداه من بقايا مائدة السادة الأمراء.

وبالرغم من ذلك لم تكن أيامي تخلو من بعض اللحظات، التي تبعث السرور في النفس، كلحظة الاختلاء بقارورّة خمر أو قنينة نبيذ معتق كل مساء.. ورؤيتي الخزين بن شيخون في نهاية كل يوم منهك..

لم أكن أرغب في إنجاب أطفال، يكونون عبيداً للأمير في المستقبل. لم أكن أرغب في تكرار مأساة أمي.

ولكن تلك اللحظات السعيدة، لم تكن كفيلة بأن تطرد ذلك الإحساس الأليم، الذي كان يتملكني ساعة الفراق، والموت وضرب السياط.

لم أنس يوماً أن الخلاص آتٍ يوما ما، ليس علي سوى التحلي بالصبر والصلاة والدعاء، وحكايات أمي عن جزيرتها البعيدة التي أختطفها منها الغزاة الجنكويز، ذات ليلة غاب فيها البدر!

يشرخ همس أم ضي الجدران الحجرية، فتسكن حركة الصراصير، ويسحب الفار قائمتيه إلى حضنه، وهو ينظر إلى مرتبكاً، فيما ود دبرك على المنور، يغني أغنية حزينة ملؤها الأسى والالتياع!

"تحققت نبوءة أمي ذات يوم، وأنا أسمع أصواتاً تأتي من خارج المزرعة، وخلف بوابة القصر الأميري، تعلن أن الزنج عند منحدر النّهر شرقاً، ثاروا، فأحرقوا مقر قيادة جيش الجنكويز في البلاد الأسيرّة، وبيوت سادتهم القادة؛ وحقول إحدى الطوائف التي تحالفت مع الغزاة؛ وارادت جعل البلاد الأسيرّة حديقه خلفيه لبلاد المنتظر!

إنتشرت أخبار ثورة الزنج الرّهيبة. ملأت الأرقاء قسوّة مضاعفة ضد سادتهم، كما أعطت شعوب البلاد الأسيرّة، الذين كانوا يئنون تحت ثقل الضرائب، وسؤ المعاملة؛ الأمل!.. الأمل في أن تشرق شمس الحرّية، وأخذوا جميعاً يحلمون بـ صانع الفخار.

اعتقد الامراء وقادة الجند، أن المزيد من القسـوّة وإعمال العصـا، سـيخمد النيرّان المشـتعلة في قلوب العبيد، أو ربما سـتكون الخناجر أو المشـانق أو البيع، في أسـواق الرقيق في البلاد الأسـيرّة. رادعاً لنقمتهم الجامحة.

ثم خطر في ذهنهم أخيراً، أن المعاملة اللطيفة؛ من شـأنها أن تحد من اندفاع الثوار، فما كان من الأمير وزوجته؛ إلاّ أن تخليا عن كبريائهما الزائف؛ وقصدا مساكن العبيد؛ زائرين مبتسمين حاملين الهدايا.

في خضـم هذا التغيير، أصـبحت للخزين داره الخاصـة، التي صـارت ملاذنا الآمن، عندما يضيق علينا المزرعة.

احتضن الخزين نفسه، دون جدوى.. كان محبوساً في كيانه، متوحداً، وغارقاً في القذارة والأسـى. وليس أمامه سـوى نبوءات الذكريات والصّلاة والدعاء لينجو.

في منتصـف الليل؛ دخل عليه أحد عسـس القلعة. همس في أُذنه طالباً منه أن ينهض، لأن أتباع صـانع الفخار يسـاعدونه الآن! فالفرصة مواتية، وإلا فلا!

لم يصدق ما سمع، ثم لم يلبث أن تذكر زقزقة ود دبرك، فخرج خلف الحارس يتسحب في حذّر..

مشى مسرعاً الخُطى دون توقف، وعندما أدركه التعب، استراح على حافة طريق؛ بين أشجار نخيل طاعنة في السن..

واصل المسير؛ إلى أن وصل أطراف بلدة؛ كان ينتظره فيها اتباع آخرون لصانع الفخار.

وبعد أن تمكن الخزين من الهرب، والنجاة بمساعدة اتباع صانع الفخار، المنتشرين وسط عسس دكَّام الجنكويزي، لم يمكث في البلدة القديمّة.. توجه إلى دار الرّيح، يروم لقاء صانع الفخار.

وبعد مضي أسابيع؛ مرّت كسنواتٍ طويلة، تمكن من لقائه في دار سرِّية؛ على أطراف حاضرّة دار الرّيح.

قال الخزين:

"لقد حكيت لك يا سيدي كل شيء؛ من المبتدأ إلى المنتهى. أغفر لي سوء ظني بك.. لقد وشيت بك لقلة عقلي، وأنت الذي أنقذت حياتي، منحتني حمايتك.. فلا تحتقرّني"

"لا بأس عليك. فقد قتلوا رسولي إليك واستبدلوه بواحد منهم. ما كنت لتعلم ذلك"

"كان يجب أن أعلم، فقد كان شاباً رّخواً مريباً لا يشبه رُسلك"

"هذه دارك التي ستمكث فيها.. ستبقى هنا في دار الرّيح، حيث لا يعرفك أحد.. ولكن الحذر الحذر"

رّمى صانع الفخار كلماته الأخيرة؛ بوجه الخزين، وغادر!

كان اسمها الحقيقي هو النّال، وهو اســـم لم يعمدها به كاهن أو استلهمته أمها من ظُلمة البلاد الأسيرّة، وإنما اختارته بنفسها، قبل أن تلتقي الخزين، الذي رآها للمرة الأولى في سوق الطلح.

لم تكن تحب اســـم النّال، لأنها لم تكن تريد أن يشـــير إلى موطنها، فكان اســـم الهيف في ظنها؛ لا يرتبط بمكان معين؛ يمكن أن يدل عليها، وفي الحقيقة كان وقع الهيف، أكثر ســـحراً وجمالاً من اسمها الحقيقي.

لم تكن جميلة، لكنها كذلك لم تكن قبيحة. إذ كان وجهها عادياً تماماً، مثل كل الوجوّه التي لا يمكن تذكرها بعد مفارقتها، لكن ما كان يميزها هو جســـدها المصـــبوب بعناية، تلفت انتباه الشـــهوّات الكامنة.

في البـدء كـانـت مجرد عـاملـة في خمـارّة، حيـث تُغرق أحزانها في المشـــروبات، المســـتخلصـــة من الزهور البرّية؛ الممزوجة بماء النّهر الطيني. ورُّغم همتها ونشـــاطها، لم يكن رواد الخمارّة يشـــعرون بوجودها، إلا حين تنادي عليها صاحبة الخمارّة؛ أو زبون نفذ صبره:

"هيف.. الهيف"

حينذ يرفع الزبائن رؤوسهم، ليروا صاحبة الاسم الجميل، ولا يجدون أحداً فيعودون إلى شرابهم، فتنشغل بمداعباتهم للأُخريات، والتحرّش بهن بالطرائف والنكات الداعرّة، والضحكات الصاخبة، وهم يصفقون أيديهم، فتمتزج كل هذه الأصوات، تُشكِّل روح الخمارّة، في هذا الفضاء المتوتر!.. لكنها أبداً لم تتمكن؛ من الانسجام مع هذا المناخ؛ فغادرت..

عادةً كان الزبائن يتشاجرون؛ على فتياتٍ ليس لأجسامهن ما لجسمها من فتنة. فتسأل نفسها في إحباط:

"ماذا لديهن أكثر مني؟"

وتتخيل نفسها سيدة على قصر مليء بالخدم والحشم، تقام فيه حفلات صاخبة، فيقدم لها خدمها ولسادة القوم؛ والمُتملقون من وجهاء البلدة، كؤوس النبيذ أو الخمر.. ثم يبتسم لها هؤلاء الضائعون وأولئك، ابتسامات واعدة. وتوجه هي الشتائم للخدم، فيما تحظى بمداعبات القوم المحتقنة بالشهوّة والقلق.. لا أحد يتجاهل وجودها.

غادرّت مدفوعةً بأحلامها، تجرب حظها في بلدات مجاورّة. إلا أن الحال لم يتغيّر. قد تحظى بزبون من حين لآخر، إلا أن أحداً لا يهتم بها كما تتمنى، أو يرغبها لدرجة القتال من أجلها.

كانوا يختارونها فقط، عندما لا يكون هناك سـواها، أو عندما ينال من وعيهم السُكر!

كانت تشعر بالاستياء من كل هذا، وكانت ترى في كل أُنثى جميلة خصماً لها، فتتعامل معهن بغضب، وهكذا قررّت أن ترحل بعيداً جداً، كطائر يتوق إلى التغيير والحيّاة المثيرّة، في سماوات لا حدود لها!

وهكذا أخذت تبحث عن وجوه جديدة، في أرض جديدة، تحقق فيها انتصارات تحبها.. كانت تبحث عن الحب، عندما رأت تاجر الطلح يسقي حصانه في النّهر، فاقتربت منه وسألته أن يتزوجها.

ومنذ ذلك الحين، أخذت تمتهن بيع الطلح، فتجوب فيافي دار الرّيح مع الحطابين، ليحملونه لها على البغال، ثم تقصد الأسواق، فتنصب أربعة عصي تظللها بنسيج النّال، تحتمي تحتها من الشمس أثناء تلبيتها طلبات زبائنها.

لم تكن بحاجة للإعلان عن بضاعتها، ولكثرة ما تنقلت من مكان إلى آخر، صـــار الجميع يعرفونها، وهناك من كانوا ينتظرون قدومها من آن لآخر، وحين تظهر فـــي الحاضرّة، خلفها البغال المحمّلة بالطلح، وتحت إبطها مخلايـة من الكتـان، تتزاحم عليهـا الجواري والإمـاء، اللاتي ترسلهن سيداتهن؛ لشراء بعض الطلح "لحفرّة الدّخان".

كانت النّال تعرّف القراءة والكتابة جيداً، فأخذت تكتب للمحبين رسائلهم، وكذلك كانت تكتب للأعداء اللدودين، عندما يرغبون في كيل الشتائم المقذعة لبعضهم!

كانت الهيف تتوسـط أخوة وأخوات، يزيد عددهم عن العشـرّة، في أسرّة فقيرّة؛ بائسة ويائسة!.. ولدوا ونموا، وبدأوا يموتون فـــي بلدة قاحلة؛ ظلت تتعرض للجفاف لسنوات طويلة.

وعندما تخطت العشـــرّة ســـنوات الأولى من عمرها، اكتشـــفت أنها تتمتع بالقدرّة على الحيّاة، رغم فقر أسرتها المزمن!

وفـــي سنة شديدة الجفاف، كان عليها أن تدفن ما تبقى من أفراد أســـرتها، وقبل أن يحين دورها؛ فلا تجد من يدفنها؛ قررت أن تهيم

على وجهها باتجاه دار الرّيح؛ لترى إن كانت تستطيع مغافلة الموت في الطريق.

أثناء رحلتها الطويلة، عملت في الخمارّات، وبمرور الوقت اكتشفت قدرتها على صناعة قدرها؛ فعند وصولها إلى حاضرّة دار الرّيح، ما وراء بحر دار صباح الملوّن، رأت رجلاً مسناً يغسل جواده بالماء، الذي رّوت منه عطشها قبل قليل. وبعد أن جاذبته أطراف الحديث قالت له:

"اتخذني زوجة لك فأنا فقيرّة، وبحاجة لمن يعولني"

وكان هو الآخر قد وقع في غرام جسدها المجنون، فتزوجها. ولم يلبث سوى أشهر قليلة حتى مات. فورثت عنه تجارة الطلح.

وفي تلك الصبيحة التي ارتاد فيها الخزين سوق الطلح رآها، إمراة فتية ساحرّة، ذكرته حبيبته البعيدة أُم ضي بعينيها اللوزيتين، اللتين تفيضان بالجُرأة، فسالها:

"بكم ربطة الطلح"

فابتسمت بخبث:

"ما ظننتك تسأل عن الطلح، ولكن عن صاحبة الطلح"

فابتسم وتبادلا الحدّيث.. كلاهما كان منجذباً نحو الآخر، فلم يشعرا بالحاجة لإخفاء هذا الانجذاب، ولم يكونا بحاجة لذلك.

وكانت الهيف وهي تتأمل هيئة الخزين، قد أدركت أنه بحاجة لعمل يعول منه نفسه، فانتقل للعيش معها بعيداً عن العلاقات العابرّة..

وبدأت شيئا فشيئا تتوغل في عالمه، وهي تراه منكفئاً على مخطوطاته.. كانت بادئ الأمر تستغرب، لكن بمرور الوقت، اكتشفت أنه ليس ذلك الرّجل الفقير الذي ظنته!

عاشت لسنوات؛ لا تفكر سوى في حدود تمضية يومها دون جوع.. دون أن يخطر ببالها، أنها يمكن أن تهزم جوع كل النّاس.. أن تهزم الفقر الذي يجعلهم جوعى!

حدثها الخزين عن "طائفة صانع الفخار" وما تنطوي عليه هذه المخطوطات، من أسرار حيّاة الإنسان من الميلاد إلى الممات،

وهكذا أدركت أن المخطوطات، تُقدم لها آفاقاً غير محدودة.. آفاقا لم تخطر على بالها أبداً.

فأخذت الهيف تقرأ بنهم، كل ما يقع تحت يدها من مخطوطات الخزين، ومن ثم أخذت تبيع مع الطلح؛ لزبوناتها من الجواري والإماء؛ اللاتي يأتين لشراء الطلح لسيداتهن؛ كلمات العدالة والحرية وعقيدة صانع الفخار!

إلى أن داهم عسس الجنكويز السوق فجأة، يقودهم قائداً رخواً موسوم الوجه. كان قد انتقل لتوه إلى دار الرّيح، تسبقه من دار صباح التي وفد منها؛ سمعته بولائه المطلق لقائده دكَّام.

خلّف مروره دوامة إعصار، خلطت حابل الناس بنابل الدواب، فابتعدت الدجاجات طائرة، وهرّعت الكلاب تبتعد وهي تعوّي، وركضت النُسوّة مع أطفالهن، ولم تبق في السوق نفس واحدة حية، سوى الهيف التي لم تكن قد رأته من قبل، فاستغربت أنه اتجه نحوها؛ وسألها موجهاً إليها سوطه المطوي:

"أنت بائعة الطلح؟"

"نعم"

أجابت في خوف فسألها:

"وماذا تبيعين معه؟"

فردت:

"لاشيء؛ فقط الطلح"

لم تكد تقول ذلك؛ حتى انقض عليها العسس الجنكويز، يقوضون مظلتها؛ ويفرقون تجارتها، ثم حملوها مثلما يحمل الصيادين زكائب السمك، وألقوا بها على ظهر أحد الجياد، وانطلقوا يقودهم الشاب النحيف الرّخو، صوب معسكر الجنكويز.

كانت الهيف على وشك فقدان الوّعي، بسبب ارتجاجات الجواد، حين أحست أنهم قد توقفوا، وأن أربع أيدٍ قوية أنزلتها على الأرض.

حاولت الوقوف على قدميها؛ ورفع رأسها بتحد، لكن قواها خانتها وانهارت وهي تطلق أَنَّة عميقة؛ وتفقد الوعي.

وعندما استيقظت بعد وقت ليس قصير، على وحشة الليل في المعسكر، التي زودت أذنيها بأصوات جديدة، حاولت فك رموز هذه الأصوات بالبحث عن كلمات في لغة الجنكويز، ولكن أذنيها لم تجد القدرّة؛ على الوصول إلى مصادر الأصوات، التي بدت غامضة ومشوشة!

وما أن فتحت عينيها؛ حتى وجدت نفسها أمام الشاب الرّخو النحيف، الذي كان يراقبها بعينين؛ لا تحملان معانٍ محددّة.

أخيراً افقت أيتها العاهرّة"

قال ذلك وهو يمد إليها ركوّة، لتشرب رشفة من الماء العكر، سرعان ما كثفت وعيها.. أرادت أن تعرف سبب كل هذه المعاملة القاسية، فرد عليها الرجل النحيف الرّخو، بأن قائده دكَّام، بحاجة إلى خدماتها.

سمح لها بصب الماء على وجهها، وقادها في الحال إلى أطراف المعسكر، حيث كان أكثر الرّجال إثارّةً للخوف والرُّعب، في البلاد الأسيرّة كلها؛ يرقد على أرجوحةِ نوم، معلقة بين شجرّتين.

لم تستطع رؤية وجهه. ليس فقط لأن ظلال أوراق الشجر كانت تغطيه، بل وكذلك لأن شعلات الضوء المترّاقصة في وحشة الليل، لم يكن ضوئها كافياً!

لطالما حكى لها الخزين عن هذا الشاب الرّخو، وعن دكّام الذي أنفق سنوات من صباه، يتعيش من قطع الطريق على النّاس، إلى أن جاءت به صدف غامضة، إلى قيادة عسس الجنكويز؛ بعد أن تعاون مع المقدس سرّه، فقضى على عدد كبير من صانعي الفخار، وغيرّهم من قطاع الطرق.

وكيف تقمص معاونه الشاب الرّخو، شخصية رّسول صانع الفخار الأكبر إليه، وخدعه هو الخزين شخصياً؛ بعد أن قتل الرّسول الحقيقي.

"لقد خدعني. سأنتقم منه متى حانت الفرصة"

كان الخزين يكرر ذلك بمرارّة.. فتخيلت الهيف أنه لابد أن يكون رهيباً، إذا كان النحيف الرّخو يكلمه بكل ذلك التذّلل. ولهذا فوجئت؛ حين سمعت صوته، ناعماً ومرخماً مثل صوت مغتلمة.

"أأنتِ بائعة الطلح؟"

فدمدمت وهي تشرئب في العتمّة، لتراه بصورّة أفضل:

"تحت أمرك يا سيدي"

حينئذ نهض واقفاً، وأنار مزيداً من المشـــاعل؛ التي أخذ النحيف الرّخو؛ يوزعها على المكان على نحوٍ مدروس؛ فرأت وجهه.. بشـرته القاتمّة وعينيه اللامعتين كعيني بومة في ظلمة حالكة؛ شـديدّة العتمّة، فأدركت فـــي الحال؛ أنها أمام أكثر الرّجال، وحدّة وشقاءَ فـــي هذا البلاد الأسيرَّة!

أخبرها دكَّام؛ أنه يريد أن يحل محل أميره وقائده المقدّس ســـرّه. لقد أرهقه زرع البلاد بالحروب التي لا طائل منها؛ مع الطوائف والفرق والجماعات والحركات، التي نجح بعضها بالفعل؛ في الاستقلال بحكم بعض بلدان الإمبراطورية مترامية الأطراف.

وأنه يعتقد أن هزائم المقدس سرّه، لا يمكن لأي معجزة أن تحولها إلى انتصارات.

وكان دكَّام قد أمضى سنواته الأخيرة؛ ينام في الخلاء.. يلسعه الناموس.. ويتغذّى ببيض الطيور والزواحف وحساء الحيات، ويعرج بإحدى ساقيه في أيام البرد؛ لأن أحد سهام العنابسة أصاب مؤخرته فترك أثراً لا ينمحي!

لكن كل ذلك لا يهمه.. ما يزعجه حقاً؛ هو رؤية هذه الجماعات تنشط؛ وتهدد الإمبراطورية بنهايتها المحتومة.. لذا قرر أن يتحالف مع صانعي الفخار، للقضاء على طوائف العنابسة والجريديين، ووضع حد لكل هذه الفوضى؛ لكنه لم يخبرها؛ أنه عندما يتحقق له ذلك؛ سيتفرغ للقضاء على "طائفة صانع الفخار الأم" التي انبثقت منها كل هذه الطوائف!

"أخبرتنا عيوننا بما تبيعينه من كلام!"

"لا يا سيدي أنا.."

"لا تخافي؛ نحن نعرف أنك على صلة بطائفة صانع الفخار.. نحن لا نقصد بك أو بهم شراً، كل ما نريده أن تصلينا بقائدهم هنا، فنحن نرغب في التفاوض معه"

أدركت من لهجته؛ أنهم لا يملكون أي معلومات عن الخزين؛ أو ربما لا يعرفون أنه الخزين ..

مع آذان الفجر؛ من كـل يوم من أيام خرائف البلاد الأســـيرّة، تســـتيقظ البلدة القديمّة منهكة، وتبدأ حركاتها الأولى؛ على وقع الرّذاذ الخفيف، العالق في فضـــاءاتها الضـــبابية الغامضـــة، التي تُنذر بأحداثٍ وشيكة، لا تحدث مطلقاً!

وفيما يتخلل هذا الرّذاذ، خيوط الشـــمس الأولى يتبدد، قبل أن يُلامس طرقات البلدة المليئة بالتعرجات والحُفر، وأكوام الزبالة.

الأهالي؛ الذين لا يجوبون طرقات البلدة؛ في سـاعات الليل، خشـية "الجنكويز" يكتفون بإطلاق اشباحهم، فيتراءى كل السكان الموتى، عبر تاريخ البلدة التليد.. الوثنيون، الكهنة، البرامكة أصحاب السر الأعظم؛ للمقدس زرادشـت وبوذا وماني ومزدك.. الأحبار.. الرّهبان والفقهاء.. المخنثين والسحاقيات..

طيوفهم جميعا تتســـلل خلســـةً، من المعابد العتيقة والأديرّة، التي ترفرف الرّايات الحمراء من الحانات؛ والخمارّات الملحقة بها، يتبعون خُطى بعضـهم؛ وهي تمضـي بحذّر، وتنزلق داخل الزُقاقات الضـيقة، تبتلعها عتمّة الدروب، المفضـية لدار عاشـقٍ مهجور، أو عشـيقة لا

تكف نداءاتها اللحوحة، تغذي بلهفتها نيرّان هذه الدور، المضـــاءة بمصابيح ومشاعل الزّيت الشحيحة.

فتتبدى هذه الزُقاقات والدروب، عن طيوف؛ من مروا بها ذات يوم، من سـادة مسـكونين بطلب المتعة، وقيان و جواري وإماء، و سـبايا وعبيد مخصيين غُلبوا على أمرهم، في غزوات "النبشيين" المجيدة!

تتفتق الزُقاقات والدور؛ ذات الضوء الشحيح، عن خيالاتهم جميعاً.. وهم يمشون بخُطى متثاقلة، يتوحدون في شعر ونثر الأغربة والزنادقة، التي ترســـم القبلات؛ على شـــفاه الفتيات الشـــريفات العفيفات الحرائر، اللواتي منذها ينتظرن عشاقاً فوارس، يترجلون على صهاوى جيادهم الجُرد الأدهميّة، وهي تصـهل في رحم قصـيدة ضـالة في هذه الدروب الضيقة، المسكونة بالمجون والعتة وإرث الزنادقة المخضرمين!

الذين لطالما امتشـــقوا مشـــاعر كل الكائنات اللّيلية، التي تمتلئ بها البلـدة القـديمـة وتفيض، منـذ اللحظـات الأولى لهطول المطر؛ في هضاب أكسوم البعيدة، عند العنق من رّحم البحر الملون الرّهيب!

يســـبحون في شـــهوّاتهم، متلفعين زبد البحر.. متوســـدين مويجاته الهائمة، التي تهدهدهم لآخر ذروّة، ثم تسحبهم في مدها وجزرها؛ إلى قاع النشوّة الحرون!

وعندما تتبدد العتمّة، وتبوح الشـــمس بمكنوناتها، يخرج أهالي البلدة من عراك الأخيلة والطيوف الليلية، متوجهين إلى ســـوق الشـــعراء، مقار العســـس الجنكويزي، دار الغلاط، ســـوق الوراقين؛ القصـــر الأميري، الســـهل الزراعي؛ الذي يتكئ على خاصـــرّة البلدة، التي تنمو في امتداداتها أشجار النخيل والكروم، وهم لا يزالون يتثاءبون!

وقد تتعالى الأصوات داخل الدور المغلقة:

"استيقظوا.. حان الوقت"

فيجري الصـــبيان نحو أحواض الفخار الكبيرة، وهم يفركون عيونهم المرمدة، وهي تستقبل خيوط الشمس الأولى!

مع هدوء الليل، يركد الماء.. وحول أحواض الفخار، يرى الصـــبيان على التراب الرّملي، نُمو العشـب الطازج الرّخو. على جانبي الحوض

المغروس في الرّمل، يغسلون وجوههم، ويأخذ كل واحد منهم سطله، ثم ينزل إلى الشارع.

في فناء "سجن القلعة القديمة" قُبيل الفجر بلحظات، أعدم "الجنكويز" أتباع صانع الفخار العنابسة، الذين يعتقدون في التخنث.. أطلق السهام المسمومة عليهم، شرذمة من العسس، الذين كانوا لا يزالون مُثقلين بالخوف والنُعاس.

فيما لقى الناجون من حملات الاعتقالات المستعرّة –إلا قلة منهم– حتفهم في المعارك التي تم التكتم عليها، والتي هي أقرب ما تكون إلى عمليات سرّية، في جحيم الحرب الضارية ضد العنابسة والجريديين، الذين كانوا كما اعتقد الكثير من العقلاء:

"رومانسيين، بؤساء وضائعين!"

إذ لم تكن "البلاد الاسيرّة" بالنسبة لهم، "المستقبل المثالي" فقط، بل والحاضر الذي لا يمكن التعايش معه، وقد خيب الأهالي القادرين على التعايش مع كل شيء ظنونهم، فأُعدموا أثناء تحوّلهم إلى أسطورّة مفعمة بالمرارّة والألم!

لقد كانت القباب المستديرّة، والأضرحة والمستنقعات الدّامية، وملاحقات (دكَّام) (لفهمو زايد العنبسي)؛ (وأب جيقة الجريدي)

وصـــانعي الفخار، وذكريات بطولات الملاحم العظيمة، التي تحكي عن الغزو والتوســع، والتي لا تفتأ تتجســد فتُخرج أبطالاً خالدين تارّةً، وأشــباحاً وطيوفاً ليلية؛ ترتاد دروب البلدة القديمة؛ في قلق مزمن، تارّةً أخرى.

كـان كـل ذلـك يُلهم الصــبيـة المنكفئين؛ على أحواض الفخـار، يغسلون وجوههم، ثم تأخذهم الدروب الضيقة، يكرّون على بعضهم البعض، بســيوف من (عُشّــر)، ويفرّون.. يجســدون تلك الملاحم الغابرّة!

قال الخزين؛ الذي انتحى ركناً قصياً من سوق الشعراء، الذي ترفرف على ساريته راية المغول؛ وهو يُحدِّث حيرّانه:

"قبل سنوات.. في ليلة من أوائل الخريف، لن أنساها أبداً، أتى إلينا صانع فخار، من رفقاء الدرب في دار الرّيح.. كان رسولاً شخصياً لصانع الفخار الأكبر.. أوفده يستجلي ما جرى.. أول سؤال سألني إياه، كان عن سارّة رفيقة صانع الفخار فأجبته:

"ستراها قريباً"

كان في مقتبل عمره، وكان على الرّغم من نحافته رخواً، ويعطي المرء إحساساً بالانزعاج، لكونه يبدو مترهلاً.

كان مجادلاً صعب المرّاس، بحدته المفرطة، والخيلاء التي تقطر من أسلوبه في الكلام، وبطريقة، محتقنة بلغة تعاليم "صانع الفخار" الصارّمة التي لا يفتأ يستشهد بها، كسيف مسلط، للمقاطعة والتعمية على الحقائق في النقاش، جادلني حول ما جرى "للغِّصين ودِهيبة" ورفاقهما الثلاث..

كرهته أكثر من كراهيتي للجنكويز، ولم يمنعني منه شيء؛ سوى أنه مبعوث صانع الفخار إلينا، وأدركت وقتئذ؛ أن الأسباب التي تجعل إنساناً، يكرّه إنساناً آخر، أو يحبه لا حصر لها!

لقد اختزل ذلك الشاب الرّخو، تاريخ "البلاد الأسيرّة" في مزيج غرّيب من الأفكار، التي تخلط "الغضب الإلهي" بهيمنة البعض على الثروات، مكذباً حقيقة عدم صلة الله؛ بما يفعله النّاس بأنفسهم، وإمكانية أن يعيش النّاس دون ثروات كثيرّة مثلما يعيشون الآن في ظل المغول، أو قدرتهم البشرية على انتزاع حقوقهم!..

بلبل الشاب الرّخو أفكاري وغضبي أكثر وقتها، زعمه أن ثورّة صانعي الفخار، توشك على الاحتضار.. كان يقول الرأي ونقيضه، فلا تعرف من أين تمسك بتلافيفه!

قلت له:

"أنا أعلم بدهاليز صانعي الفخار أكثر منك، وأعرف متى تنتصر ثورتهم، وأؤمن بشيء واحد، أن القضايا الخاسرّة بنظر الجنكويز، هي ما تحظى بصانعي الفخار الحقيقيين".

بحلول الليل غادرنا داري القديمّة، التي كنت قد اســـتقبلته فيها. ومضينا نتجول في طرقات البلدة التي بدأ يغلفها الهدوء.. وكان الأثر الذي خلفته آراء الشـــاب الرّخو القاطعة، لا يزال يقلق تفكيري، فيزداد غضبي من لهجته غير القابلة للأخذ والرّد.

فقد ظل يتحدث بطريقة اســتعلائية جازمة وحاسمة. وخطر لي أنه لا يســعى لاقناعي، بل يريد أن يُملي علي ما يراه هو صــحيحاً، داعماً رأيه بتكرار الزّعم، أن صـــانع الفخار يثق به، ولذلك أوفده. فخطر لي أكثر من مرّة، أن أنهال عليه ضرباً، لكنني تراجعت!"

صـعدا أحد الطرق الطرّفية، التي تقع في نهايتها أشـجار نخيل كثيفة، وانعطفا منها إلى درب متعرّج طويل يُفضـــي إلى النّهر، على جانبيه تراصت أكثر الدور عراقةً في البلدة القديمّة.

لم يكونا الوحيدين. ففي الأحواش الكبيرّة لهذه الدور، كما هو الحال في كل حارات وضـــواحي البلدة القديمّة الأخرى، تســـرّح الكلاب والأغنـام وعـائلات الـدجـاج، والـدّيكـة اليتـامى، وتُرمى الأحـذيـة القديمّة، وأقراص الخبز الجاف، التي تطاول عليها العهد، والجرذان

الميتة من الجوع، والقطن والكتان الملوّث بدّم الدورّة الشـــهرية، للجواري وسيداتهن!

انحدرا بمحاذاةِ سـور خشـب مصـمت بلا نوافذ، تسـلقته أشـجار العنب، فيما بدا أنها دار أحد الجنكويز الموســـرّين، أو مقراً لبيوت أشباح سرّية، بعد أن ضاق سجن القلعة على المعتقلين.. سمعا وقع حوافر خيل تقترب من جهتهما.

فتراجعا إلى درب ضـيق وعر. وبغتةً خرج عليهما جنكويزي ضـخم الجثة، من جهة حانوت بعيد؛ تضيئه مصابيح الزّيت الشاحبة، بضوءٍ ظلالي متراقص وهو يصرخ:

"قفا مكانكما"

غير أن الخزين أسـرع الخطى، فيما توقفت قدما الشـاب الرّخو عن المشـــي، فلم يتبعه.. كان قد تســـمّر بلا حراك، وهو في حالة من الارتباك والتردد الغريبين! كما لو أنه قد تحجر من الرُّعب.

التفت الخزين ورائه واستدار عائداً، وبضربة واحدة طرح الجنكويزي أرضاً. ثم جذّب الشاب الرّخو، ووبخه وأمره بلهجةٍ حازمة:

"اتبعني"

أخذه من ذراعه، فقد بدا عاجزاً عن المشـــي، وفرا في تلك الليلة، التي انتهكت عذرية صمتها، أصوات وقع حوافر الخيل، التي تفرقت في كل اتجاه، وجنكويزها يرمون بوابل من السـهام العشـوائية، علهم يصـيبانهما، أينما كانا يختبئان.. فخدش أحد السـهام ذراع الشـاب الرّخو، أثناء اندفاعهما للاختباء داخل دغل النخيل.

سمع الخزين نهنهة الشـاب الخافتة، وبدا له أنه كان يقاوم الانخراط في البكاء.

مكثا لسـاعات طويلة في مكانهما، قبل أن يسـتشـعرا انصـراف الجنكويز.. غادرا مكمنهما ومضيا في طريقهما يحتميان بدار "سارّة" القديمة، التي كانت تعيش فيها وحيدّة، بعد وفاة زوجها الأبرص، ومغادرة حبيبها صانع الفخار؛ إلى دار الرّيح.

كان عمر الدار، التي تبدو كخرّابة مهجورّة، يُناهز الألف عام. ومع ذلك كانت مبانيها العتيقة المتداعية والكئيبة، بمثابة الملاذ الوحيد الآمن، الذي لا يمكن للجنكويز أن يتوقعونه!

كانت للدار عدة مداخل يتوه المرء في ممرّاتها، وكانت أبهيتها وحجراتها خاوية.. سارّة لم تكن تشغل؛ سوى الغرفة المفصولة والمنفردة؛ في ركن الدار، فيما تكتفي بأن ترتاد من آن لآخر، حجرتا المخطوطات والخمر، المتصلتان ببقية حُجرّات الدار، اللتان احتلتا مساحة واسعة.

وكانت المخطوطات المثيرّة للجدل، التي كتبها صانع الفخار بيده، في الفترّة التي عاشها مع سارّة في هذه الدار، بعد وفاة زوجها الأبرص، غير مرتبة.

أخبره صانع الفخار، أن هذه المخطوطات، تُعطى بشكل ما؛ عصور ما قبل الديانات.. حتى لحظة ميلاد "طائفة صانع الفخار"..

أما السيوف النيسابورية والهندية المقوّسة، على جدران حجرّة المخطوطات، فقد علقها صانع الفخار بنفسه.

وفيما كان الخزين يتأمل هذه السيوف، التي لطالما شعر، في زياراته لصانع الفخار، كأنها لا تزال تحتفظ بالعواصف، واحتدام حروب الفرس والهند والسند.. كان موفد صانع الفخار لحظتئذ؛ ينظر إلى

هذه السيوف ذاتها، بعيون زائغة وجسد مرتعش وشفاه متيبسة. ثم ما لبث أن همس بصوت ارتخى في أذن الخزين كزحف ثعبان داعر:

"لقد نجونا للتو من قتل محتم!"

بعد أن ضمدت سارّة الجرح السطحي على ذراعه، جاءته بقدح نبيذ له عرّام. فطلب آخر وثالث؛ إلى أن سرّى الاكسير في عروقه، فارتخت ملامحه الرّخوة أكثر، وتهدلت بشكل غريب! فغمغم:

"لكنك أقدمت على مخاطرّة، لا تخلو من والحمق، لقد عرضتنا لخطر القتل يا رجل!"

غضب الخزين غضباً شديداً، اسكتته سارّة بنظرّة حادة، فكظم غيظه، وحاول أن يقول بهدوء:

"توقعت أن تشكرني على إنقاذ حياتك، لكن على كل حال لا تشغل بالك بهذه الأحداث المثيرّة، التي اعتدنا عليها كصانعي فخار".

نظر إليه الشـــاب الرّخو في صـــمت، وقد بدا من الالتماع الوقح لعينيه، أنه بدأ يستعيد جأشه المهدر، أردف الخزين:

"طبيعة الحرب بيننا والجنكويز، دفعتني لفعل ما فعلت، وعلاوة على ذلك، فإن قتل أو ســـجن أي رفيق من صـــانعي الفخار، يزيد من حجم المخاطر التي تتعرض لها الدعوّة"

في اليوم التالي اسـترد الفتى الرّخو رباطة جأشـه؛ بصـورةٍ تامة، تناول قارورّة كاملة من النبيذ، وقضـــى على كل الأكل؛ الذي جاءت به سارّة، ثم شرع يمارس هوايته في الضغط على أعصاب الخزين:

"أريد أن أعرف مصادر تمويلنا هنا في دار صباح".

كانت أسـئلته مريبة وسـافرّة تماماً، أخبرته سـارّة –وكانت تلك هي الحقيقة– بأن وضـــع الطائفة المالي في دار صـــباح؛ متأزم لدرجة الخطورّة، مع أن رشـقة سـهم واحد؛ تكفي لإثارة القلاقل في البلدة القديمّة، وبلغته بأن رفاقنا صـانعي الفخار، من نقباء دار صـباح في انتظارنا.

بعدها اختلى بســـارّة في الغرفة المعزولة؛ لوقتٍ قصـــير، تبادلا فيها أســـرار. وعندما خرجا نظرت ســـارّة إلى الخزين، نظرّة يعلمها جيداً، فهدأت مخاوفه واطمأن. فقد أدرك أن الشاب الرّخو، لم يحصل منها على شيء!

ذات مساء بعيد، قدم الى البلدة القديمة صانعا فخار، يدعى أحدهما خيط الحرير والآخر عرقلة.. بدت وسامتهما الساحرّة، أقرب إلى جمال الصبايا الفاتنات. كانا في هيئة مسافرين، وكان الأيهم حفيد الأعتم الكبير، جالساً أمام باب داره، لما رآهما.. قام لاستقبالهما بحفاوّة. وهو يقول:

"يا سيّديّ، ميلا إلى دار خادمكما واغتسلا وتعشيا وبيتا"

فقالا:

"لا؛ بل نبيت هنا تحت هذا الجدار"

فألحّ عليهما. فمالا إليه ودخلا بيته. وبعد أن ضيفهما وأرادا النوم، أحاط الجنكويز بالدار. ونادوا الأيهم وسالوه:

"أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة. أخرجهما إلينا لنعرفهما"

"بأي حق تسألان عنهما؟"

"جئنا بأمر من الأمير دكّام، قائد عسس الجنكويز"

خرج إليهم وهو يغلق الباب وراءه. وكان يعلم أن إبن عمه دكَّام، لا يحب سوى الرّجال فقال:

"لا تفعلوا بهم شـــراً يا أُخوتي.. هوذا لي جاريتان لم تعرفا رجلاً. أخرجهما إليكم فافعلوا بهما ما تشـــتهون. فقط اتركوا هذان الرجلان، فقد دخلا تحت سقف داري"

وفيما كان صانع الفخار؛ وبجواره الخزين يتعشيان. دخل عليهم ثلاثة رجال وامرأتين من الغرباء؛ دون استئذان:

"جئناك يا سيدي تعلمنا"

تفرس وجوههم ملياً. فقد كان يعلم؛ أن الجنكويز لا يفتأون يرسلون عسسهم؛ بحجة التتلمذ على يديه. قام عن العشاء؛ وخلع ثيابه وأخذ منشفة؛ واتّزر بها ثم صبّ ماء في مغسل، وابتدأ يغسل يديه ويمسحها بالمنشفة، التي كان متزراً بها. فيما الخزين متكئاً على المائدة؛ يصغي الى ما سيقول.. فقال لهم:

"سلموا على بعضكم "بقبلة مقدسة". صانع الفخار الأكبر يسلم عليكم"

فتبادل الرجال الثلاثة والمرأتين نظرات الرّيبة فيما بينهم، ثم لم يلبثوا أن دنوا من بعضهم البعض يتعانقون.. ثم قضوا جميعا ليلتهم في داره، وفي الصباح بعد أن فطروا، غادروا معه يتبعونه، إلى أن رأوا امرأة، التف حولها عدداً من الجنكويز المسلحين بالعصي، فقالوا

يختبرونه لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه، وهم لا يزالون في رّيبة، مما دعاهم إليه في الأمس:

"يا سيدي هذه المرأة أُمسكت وهي تزني.. وصانع الفخار الأكبر في النّاموس، أوصانا أن مثل هذه تُرجم. فماذا تقول أنت"

فانحنى صانع الفخار إلى أسفل، يكتب بإصبعه على الأرض. ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم:

"من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر"

وإذا بامرأة خرجت من تلك التخوم، صرخت تجاهه قائلة:

"ارحمني يا سيدي.. ابنتي مريضة"

وهرولت تركع أمام قدميه وهي تضيف:

"يا سيدي أعنّي"

فلم يجبها.. فتقدم حيرانه وطلبوا إليه قائلين:

"اصرفها فقد ازعجنا صراخها وراءنا"

فقال:

"لم أُرسل إلا إلى الخرّاف الضالة، اتركوها تتبعنا"

فسارعت خُطاها تسبقه، وركعت مرةً أخرى قائلة:

"يا سيدي أعنّي"

فأجابها في المرّة الثالثة.. وعندما غادر دارها قال لحيرانه، وهو يرى امرأة فقيرّة، يلتف أطفالها حولها وهم يبكون:

"ليس حسناً أن يؤخذ خبز الأطفال؛ ويطرح للكلاب"

فسأل الحيران المرأة:

"لماذا أطفالك يبكون"

فقالت لهم:

"أخذ الجنكويز والدهم؛ قالوا إنه عنبســـي.. ولســـت أعلم أين وضعوه"

ثم صوّبت نظرها نحوه وهي تقترب منه، تريد أن تضع يدها عليه، ولم تكن تعلم من هو.. فقال لها:

"لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي. صانع الفخار الأكبر، ولكن اذهبي إلى عسس الجنكويز، وقولي لهم أني أصعد إلى أبي وأبيهم"..

وواصل طريقه؛ حتى وصل بيتاً عتيقاً دون باب، تبين فيه علامات ثراءٍ قديم، ورأى في حوشه، رجلاً أبرص يُشارف على الموت، ورأسه متكئ على ذراعه، فيما أطلت امرأته من احدى الغرف المنزوية، عند زاوية الحوش، على مبعدّةٍ من الغُرف الأخرى، وهي تحمل قارورّة عطر ثمينة.. فتحتها وسكبتها على رأس زوجها. فسألها حواره الخزين في غيظ:

"ما اسمك؟"

فردت:

"سارّة"

"لماذا تتلفين هذا العطر الثمين على هذا الأبرص؟ أما كان أجدر بك؛ أن تُعطي ثمنه لهذه المرأة الفقيرة، التي فقدت زوجها للتو"

فلم ترد عليهم. واستمروا يؤنبونها وهو صامت، إلى أن قال:

"اتركوها. لماذا تزعجونها. قد فعلت لزوجها فعلاً حسناً.. الفقراء موجودون في كل حين، باقين أبد الدّهر، ومتى أرادت تستطيع أن تعمل لهم خيراً.. وأما زوجها؛ لا تضمن أن يكون موجوداً، في كل حين"

ثم أراد أن ينصرف، فاستحلفته المرأة أن ينتظر، وهروّلت نحو الغرفة المنعزلة، وجاءت تحمل حفنة دراهم مدتها للمرأة، وقارورّة عطر أثمن من الأولى، واقتربت من صانع الفخار.

مسحت بالعطر رجليه وهي تمرر شعرها، ودهنت قدميه. فامتلأت الدار برائحة العطر. ثم وقفت من ورائه واحتضنته باكية، حتى بللت بالدموع ظهره، وأخذت تمسح البلل بشعرها، وتقبل قدميه وتدهنهما مرّة أخرى بالعطر.

وعندما أراد الانصـــراف، تركت زوجها وراءها، بعد أن ودعته بقبلة طويلة وتبعته.. ومنذئذ أخذت تلازمه. أصـــبحت رفيقته القريبة من نفسه.

لقد أحبها صانع الفخار أكثر من كل حيرانه، ولما رأت نساء البلدة القديمّة، تقبيله لها ذات مرّة، سألوه مدفوعين بالغيرّة:

"لماذا تحبها أكثر منا جميعاً؟"

فأجابهم:

"ولماذا لا أحبكم كما أحبها؟"

فقال الخزين:

"دع ســـارّة تذهب، لأن المرأة التي تترك زوجها الأبرص، في النزع الأخير لا تستحق الحيّاة"

فرد عليهم:

"وما أدراكم أنها ما كانت لتتركه، لو لم يكن أبرصاً وفي النزع الأخير.. دعوها، فقد نُبئت أنها ستدخل ملكوت السماء"

فنظروا إليه، وكانت عيناها تنتقلان بينه وبينهم، ثم احتضنته وتوسلت إليه، ألا يسمع كلام حواره الخزين.

وواصلوا السير حتى وصلوا داره، فبقوا في الخلوّة، فيما مضت سارّة معه إلى غرفته..

وبعد ستة أيام قضاها صانع الفخار يعلمها، غادرّت وعادت إليه في المساء؛ وهي لا ترتدي على جسدها العاري؛ سوى ثوباً خفيفاً من الكتان، وبقيت تلك الليلة. تتعلم منه الأسرار!

ولما طال انتظار الخزين وحيرانه، في الخلوّة؛ نهض الأول ومضى يدخل عليه غرفته، فإذا به وسارّة، انتحيا ركناً قصياً من الغرفة، يصليان في خشوع، فخرج الخزين وأغلق الباب خلفه.

وبعد أن أنهيا صلاتهما، اضطجعت سارّة على فراش صانع الفخار.. فاضطجع فوقها. ووضع فمه على فمها، وعينيه على عينيها، ويديه على يديها وتمدّد..

ثم خرج يلتقي حيرانه، وصعد على منبر الخلوّة وقال:

"لا تكن زانية من بنات البلدة القديمّة. ولا يكون مأبونون من أهالي البلدة القديمّة. لا تصنعوا صوراً مثلكم تزنون بها. ولا تضاجعون عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم وغنمكم وكلابكم"..

فقالوا جميعاً:

"أمين"

ثم استوى يصلي بهم..

ولم تمض سوى أيام قلائل حتى جاءه الحزين، يخبره أن مريديه يقودهم فهمو زايد العنبسي وابو جيقة الجريدي، قد فعلوا كل ما نهاهم عنه، فاجتمع بهم وقال:

"أريدكم أن تعرفوا، أن الذي كشـــف أمامي العالم، هو لا متناهي.. نمى بذاته. شيد ذاته كاملاً في النور الساطع، فهو أبدي.

في البدء قرر أن يجعل من خليفته على الأرض، قوّة عظيمة، وفي الحال بدأ النور.. ظهر النور كرجل مخنث، أبدي، لتدركوا خلال النور خلاصكم، وتستيقظون من النسيان. النور معكم حتى نهاية عصور الجنكويز"

ثم أطرق لوقت ليس قصير قبل أن يقول:

"تجاوب النور مع الحكمة وكشـــفها لكم.. النور هو المذكر صـــانع الفخار، مصدر الحياة، واسمه الأنثوي صوفيا "ملكة الملائكة الإناث" مصدر كل شيء.. كل ما يأتي للعالم كقطرّة من النور، مرسل منهما.. فافتحوا بصائركم"

وفيما كان صـــانع الفخار يخطب في حواريه، في اللحظة ذاتها كان أمير الجنكويز دكَّام، قد اســتدعى اثنين من القادة الشــباب الجدد، اتسما بوسامة أقرب منها إلى الجمال، كان قد تنامى إلى علمه، أنهما على عقيدة العنابسة والجريديين، التي كان يكرهها بشدّة.

وقف الشـــابان خيط الحرير وعرقلة أمام القائد دكَّام، الذي أخذ يتقرّب إليهما كصـديقين في ضـيافته، حيث قُدّمت مائدة من اللحوم المذبوحة، وطلب منهما أن يشاركاه فيها؛ فرفضا بإصرار.

عندئذ أمر أن يُجردا من ملابسهما، ويُقادا في سوق البلدة القديمّة في ثياب النســـاء.. فيما كان صـــانع الفخار وقتئذ، لا يزال يخطب في حيرانه ويقول:

"لا يكن متاع رجلٍ برجل، ولا يلبس رجل ثوب امرأة، لأن كل من يفعل ذلك ملعون"

بينمـا كـان الجنكويز على الجـانـب الآخر، قـد أعـادا خيط الحرير وعرقلة إلى دكَّام، الذي أخذ يلاطفهما ويحاول اقناعهما بالعدول عن تمردهما، فينالان امتيازات عظيمة.

أصــرا على موقفهما، فابقى خيط الحرير وأرســل عرقلة إلى ســجن القلعة، آمراً عامله هناك بتعريته، ففعل وتناوب الجنكويز في جلده على ظهره وبطنه، بأعصاب البقر، حتى أسلم الروح. وطُرحت جثته في الصحراء للذئاب الجائعة.

وفي الليل ظهر صانع الفخار لرفيقه خيط الحرير، يدعوه إلى المساكن العلوية، ويبثّ فيه روح الشــجاعة. فتماســك خيط الحرير، وشــعر بشيء من السكينة.

في الغد اســـتدعى دكَّام عامله قاتل عرقلة أمامه، وأمره بأن يجعل خيط الحرير يسير؛ بأحذية بها مسامير مدبَّبة لمسافة طويلة، قبل أن يقطع رأسه.

جعل أهالي البلدة القديمة من خيط الحرير وعرقلة، قديســين في مقام صــانع الفخار. ونســجوا حولهما الكثير من القصــص؛ التي تهدد عقيدة الأهالي!

في هذه الأثناء ألقى أمير دار صـــباح المتاخمة للبلدة القديمة، القبض على ثلاث رجال مثليين، وامرأتين شـــابتين تعشـــقان بعضـــهما، هما دهيبة والغصين..

وكانت الغصـــين ذات العشـــرين ربيعاً، ابنة أحد أثرياء البلدة القديمة يدعى بولاد الأعتمي، وكذلك متزوجة من أحد أثرياء النبشيين.

وُضع الخمسة في سجن قوز المرفعين، فجاء والد الغصين تسيل من عينيه الدموع الغزيرة، وقد انطوت نفسه على حزن عظيم، وبذل كل جهده؛ لإنقاذ ابنته؛ التي أصـــرّت في عناد؛ ألا تســـتجيب لرغبته في انقاذها؛ والعودة معه إلى داره، وعندما فشـــل في النيل من عزيمتها، انهال عليها ضرباً وشتماً، ثم تركها ومضى.

وعندما دخلت دهيبة مع زملائها الســـجن، راعها هول منظره، بظلامه الذي لا يوصـــف، والروائح النتنة التي لا تطاق، والتي كانت تفوح من كل جنباته، ولكنها هدأت ما أن رأت حبيبتها الغصـــين.. ومضـــتا تُقبلان بعضـــهما القبلة المقدســـة؛ لا تأبهان لما هما فيه من كرب!

ولما سمع بولاد والد الغصين بقرب محاكمة ابنته، جاء إليها مرة أخرى وأخذ يبكي لعلها تلين، فلم يزدها بكاءه إلا إصراراً، وأكدت له أنها لن تنكر إيمانها بعقيدة خيط الحرير وعرقلة، فقال لها:

"ما من دين ينص على ما تعتقدين، فكيف تؤمنون بهذا الشذوذ؟"

فجحدت أبيها وتجاهلته. وفي اليوم التالي أُستدعي الجميع للمحاكمة العلنية أمام دكَّام، الذي حكم عليهم؛ بإلقائهم طعامًا للوحوش الجائعة المفترسة.

جاء الوقت المحدد؛ فأعطوا بعضهم البعض قبلة الوداع المقدسة وانطلق الأهالي؛ الذين تعاطف كثيرون منهم مع هؤلاء الخمسة إلى الساحة.

وكانت دهيبة وأصدقائها الأربع شبه عُراة، لرفضهم ارتداء الملابس الجنكويزية، ولم يمضِ إلا القليل من الوقت، حتى دخل العسس الجنكويز وقتلوا السجناء الخمسة. الذين جعل منهم الأهالي أيضاً قديسين في مقام صانع الفخار، أسوةً بخيط الحرير وعرقلة..

وفيما كانت أرواحهم معلقة، تتأمل الأجســـاد التي فارقتها، مرّت على الأرواح؛ كل ذكريات هذه الأجساد من المبتدأ إلى المنتهى..

وتراءت دهيبة؛ وهي تطرق باب جارتها الغصــين لأول مرّة؛ دون أن تســمع رداً في البداية، ثم سمعت صــوت الغصــين النائمة؛ يعلو على صوت زّخات مطر البلدة الموحشة.

"من الطارق؟"

"أنا دهيبة، افتحي لي الباب".

"من؟"

"دهيبة.."

"في مثل هذه الساعة من الليل؟"

أشــعلت الغصــين المصــباح الزيتي، وأزاحت المزلاج. دخلت دهيبة ووقفت أمام الغصــين، التي كانت ترتدي قميص نوم شــفاف، وقد وضعت معطفاً حائل اللون على كتفيها. ثم سألتها بصوت تعلوه نبرّة قلق:

"هل هناك مشكلة يا دهيبة"

قالت دهيبة بصوت متردد:

"الأسئلة.. الأسئلة تجعل حياتي قلقة يا غصين"

ثم صـــمتت.. كانتا تقفان حتى تلك اللحظة؛ على حافة جرف من المشاعر المضطربة، ثم جلستا معاً على السرير.. وخرجت دهيبة عن صمتها تسأل الغصين:

"لماذا تركت منزل زوجك؟"

سـاد الصـمت مرّة أخرى، وبدى على الغصـين التي بُوغتت بسـؤال دهيبة؛ –أنها لم تفكر في الســؤال، بينما؛ ورغم دهشــتها أن تطرق عليها بابها في مثل هذه السـاعة، لتسـألها مثل هذا السـؤال– إلا أنها ردت بصوت مرتبك:

"إنها قصـــة طويلة.. أبي وأمي ثريان، وملتزمان بتعاليم ابن عمهما المقدّس سرّه، ككل آل الأعتم، وأحفاد المنتظر، الذين انقسـموا عن طائفة صانع الفخر الأم..

كنا نعيش وفق أعراف محددة، إذ لا ينبغي التحدّث مع الوثنيين، لا يجب ارتداء نفس ملابســـهم، لا يجب الرّقص. لا.. لا.. لا.. حتى عندما تزوجت، لم أختار زوجي الذي يكبر أبي في السن..

كانت هناك قوانين وقواعد، تحدد متى وأين وكيف تأكلين.. عليك المشـــي كأميرة محافظة من ســـلالة أمراء، ولا يجب أن يراكِ أحد مع الرجال. قواعد وقوانين، لكل شـــيء. فرحلت ولم أنظر إلى الوراء منذها، ولم أخبر أحداً بحكايتي. إلى أن تعرفت عليك. ليس بعد؛ سأحكي لك كل شيء.."

صـــمتت لبرهة من الزّمن؛ كانت كأنها ترى بعينيها في هذه اللحظة، الكلام نفسه وقد تجسد محسوساً، تتأمله وتلمسه، ثم خرجت عن صمتها:

"قلت لزوجي عتام؛ المتكوِّم على سنوات عمره السبعين

سأرحل!"

رددت الغصين العبارّة غاضبة من نفسها، لعدم التصرّيح بها في الليلة الماضـــية؛ وعتام يفشـــل للمرّة الألف، فيما أنفاســـه النتنة تلفح

وجهها.. ودت لو رحلت حالاً لحظتها، لترتاح من رؤية دموعه وسماع رجائه العقيم؛ ربما لم تكن تملك الشجاعة الكافية وقتئذ، فهمست لنفسها:

"ليس هناك وقت أضيعه، يجب أن أرحل قبل فوات الأوان"

قال عتام المتكوم على فراشه كفرخ طائر بلله المطر:

"أنا بحاجة إليك"

"لا، لا.. أنت لا تحتاجني.. أنت بحاجة إلي بيطار"

"هل ستعودين؟"

"راحلة إلى الأبد!"

"لقد أصبح قلبك قاسياً؛ إلى درجة تودين فيها مغادرّة زوجك وهو على فراش الموت، ولا يهمك رؤيته في هذه الحيّاة مرّة أخرى، لماذا أنت شريرّة هكذا؟!"

أحست دهيبة؛ أنه يتفحص معالم وجهها؛ ليتبين رِدَّة فعلها على هذا السؤال، السؤال الذي كانت تخشى سماعه رغم إصرارها على الرّحيل..

أشاحت بنظرها عنه، وسرح تفكيرها إلى ما وراء هذا الضباب في عقلها.. خلف جُدُر الذاكرّة التي لا تستطيع رؤيتها.. وحيث تثوي أفكار لحيّاة جديدة تشتهيها، وفكرّت في زوجها العجوز عتام، الذي فيما تتقدم رجله اليمنى نحو القبر، يؤخر رجله اليسرى.. وتتحسر على السنوات التي اضاعتها معه هباءً منثوراً، فهمست في نفسها بحزم:

"سيضمه القبر عما قريب، أما أنا فأفضل الموت على الانتظار رّهينة احضانه المترّاخية وأنفاسه النتنة.. حياتي معه أسوا الموت"

ومن ثم التفتت إليه وقالت باصرار:

"أنا رّاحلة سيأتي أبناؤك حالما يعلمون برحيلي؛ ويعتنون بك.. سأبعث في طلبهم.. لابد من الرّحيل"

حاول أن يمســـك بيده الواهنة طرف ثوبها، نظرت إلى وجهه الذي علته التجاعيد الغائرة، فرأتها تمتلئ بدموعه؛ التي لم تكف عن الانهمار، قال لها:

"لا تذهبي. لا تتركيني هكذا. لأن يقسمني السيف لنصفين أهون علي من أن تتركيني وتمضي"

"أولادك أولى بك"

"أولادي يريدون فقط وراثتي"

دفعت يده عن ثوبها وابتعدت وهي تكرر:

"سأرحل"

كانت دهيبة صامتة؛ كأنها صنم؛ بالكاد يُسمع صوت تنفسها؛ فيما صـــدر الغصـــين الذي كان يعلو ويهبط؛ يُخرج مكنوناته؛ فيجعل دواخل كل منهما تتوتر لمثل هذه الذكريات.. نظرت كل واحدة إلى الأخرى بتفهم:

"ألهذا أحببتني؟"

"أنا أتبع طائفة العنابسة، قبل أن أعرفك"

"كلتانا لديها شعور قوّي تجاه الأخرى"

ثم دنت دهيبة من الغصين؛ ومدت يدها تتحسسها، فابتعدت الغصين قليلاً؛ إلى طرف الفراش وهي تقاطعها..

"دعينا من ذلك الآن.. احكيلي حكايتك؟"

تنهدت دهيبة قليلاً؛ وقد عادت بذاكرتها إلى الوراء.. تتذكر مزرعة الأمير وطيوف أسرتها، امها، اخوتها وأختها أم ضي.. تشيح برأسها عن ذكريات الرّق والأسر، لكن ينهض من بين كل ذكرياتها؛ ذلك الشاب الذي أصر على والده أن يشتريها له.. هي، تلك الجارية الصّبية النافرّة، التي انزوت، في ركنٍ قصّيٍ.

لم تكن تنظر إلى أحد، ولم يكن أحدٌ ينظر إليها، وحتى عندما اختاروها من سوق الرقيق. بعد أن تحسسوا جسدها وأجزاءها الحميمة بدربة؛ لم يستطيعوا أن يحدّدوا؛ ما إذا كانت ممتلئة أو نحيلة. ولم تُلمَح فيها قطّ، أيّة لهفة لأصابعهم المتوحشة، التي كانت تتحرك في خبرّة آلاف السنين.

كانت المفاجأة كبيرة حين رأوا عينيها تنفتحان، على بريق قصير؛ ما لبث أن خبأ، كأن أشعة خاطفة انطلقت من عينيها، واخترقت صدورهم في تلك اللحظة!

وبعد محاولتين أو ثلاث لتخفيض ثمنها، وافق النخاس على كيس الدنانير؛ التي قدموها ثمناً لها.. وصلوا إلى السور الخارجي للدار، تردّدت للحظة وهي تسير، ثم واصلت السير خلفهم في اضطراب. إلى أن توقفوا جميعا أمام الباب الداخلي، الذي يفصل الدار إلى حوشين بفناءين؛ تفصلهما أشجار النخيل، وطرق الرّجل على الباب..

كانت لا تزال مترددة الخطو ومرتعشة، وكان رأسها يعتلج بالأفكار المتضاربة. لم يحدث لها ككل الجواري أن قررّت بنفسها، الدروب التي عليها أن تسير فيها.

أما الشابّ بالمقابل، فكان مثل والده صياداً هادئاً، استحوذت عليه صرخات السبايا في الغزو.

وجدت دهيبة نفســـها وحيدة في الدنيا، بلا أب ولا أم، لا تذكر عنهما شـيئا.. كانت تركض، وتلهث، مضـطربة، صـامتة، مشـوشـة الأفكار.

وفي محاولة هروبها الجزع من ســـيدها، بعد ظهيرّة اليوم التالي منذ جلبوها، تعثرّت ووقعت مراراً، ونهضـت تسـتردّ أنفاسـها، وتواصـل الهرّب!

هرّبت ربما بحثاً عن الحرّية، أو مدفوعة بالعودة إلى شـقيقتها أم ضـي. كانت خائفة، لكنها حرّة.. حرّة مهزومة وليســـت ظافرّة، مثلما ســـيكون عليه الحال لو أن الهارب كان أحد إخوتها، الذين تفرقت بهم سُبل أسواق الرقيق.

اكتشـــفت دهيبة مبكراً، أن مزّية الســـادة في البلاد الأســـيرّة، أنهم يحصلون على كثير من النساء لمضاجعتهن، وحتى لو ماتت احداهن، فســـوف تظهر في اللحظة نفســـها، واحدةٌ أخرى شـــبيهة بها، حتى لتبدو كما لو أنها هي نفسها. بل واكتشفت؛ من النظرات المنكسرة لأم سيدها الشاب؛ أن كون المراة امراة، لا تُحدث العبودية أي فرق، سواءً كانت حُرّة أو غير حُرّة!

في واحدة من محاولات هروبها المستمر، توقفت تتأمل إصرارها على الهروب حتى أدركها سيدها الشابّ وعبيده، ووسط صرّاخها قُبِض عليها.

وبينما هي لا تزال مشوَّشة، نفضت ثيابها التي عفرّها التراب، وسط الأصوات الغاضبة المبحوحة، والأيدي والأرجل التي امتدت تضربها وتركلها بقسوّة. وكان أن حدثت عندئذ الواقعة؛ تدفق دّم طازج من بين فخذيها!

بدت متفاجئة ومنهكة.. أول مرّة يحدث معها هذا.. إذن أصبحت امرأة مكتملة الأنوثة، في هذه اللحظات الهارّبة بالذّات.

بعد هذه التجربة الأولى لاكتمال الأنوثة، بدت كامرأة معتادة على الأمر. وبينما هي راقدة تتنفّس، وتفتح عينيها وتغمضها، كان قلبها الصغير يرفع ثوبها ويُنزله.

قالت الأم تخاطب ابنها الشاب:

"كيف حدثتكم أنفسكم ضربها بهذه القسوّة"

"لم أكن أعلم"

"ولا أظنها كانت تعلم"

"ماذا تقصدين"

"نحن النساء نعرف أشياء لا يعرفها الرجال، إنها المرّة الأولى"

"أتقصدين..."

"نعم اكتملت أُنوثتها للتو"

فأخذ سيدها الشاب يراقب كلّ شيء فيها، وعينيه تلتمعان بشكل غريب، كان يفكر أنه ربما أن لقاءه الليلي بها، عندما جاءوا بها أمس، هو ما عجل بالأمر!

وما إن تمكَّنت من التخلُّص؛ من استحواذ الحدّث عليها، حتى نهضت من رقدتها، وأفلتت العنان لمشاعرها؛ التي لا هُوِّية لها، لم تكن سعيدّة بمداهمته لها بالأمس، لم تكن سعيدة بكون أُنوثتها اكتملت اليوم.. لم تكن رقيقة ولا شرسة ولا حزينة، لم تكن أيّ شيء، مجرّد جارية مرّاهقة فحسب، تنزع للهروب وتفشل في كل

مرّة، لم يكن بعد قد تكوَّن في داخلها الشـــعور؛ الذي تكوَّن بعد أن اشتراها أب جيقة الجريدي وأعتقها.

لا تفتأ ذكرى استسلامها له، بين أشجار النخيل، قُبيل آخر محاولاتها للهرب، تخطر على بالها من آنٍ لآخر.. ملأت رئتيها بالهواء؛ الذي شـــعرّت به طرياً محتقناً برائحة التمر، أمســـك بها فغنت لأول مرّة.. ولأول مرّة تدرك أنها ليســـت المرأة التي ظنتها، كان تبدُّلاً مفاجئاً قد طرأ عليها.

السجناء الخمسة الذين جعل منهم الأهالي أيضاً. قديسين في مقام صانع الفخار، أُسوّةً بخيط الحرير وعرقلة.. هم القديسين الذين كان بولاد والدها يكرههم، لذا عندما شبت ابنته الصغرى أم نفل، خاف عليها من مفاسد عقيدة صانع الفخار، خاصة أنها كانت ذات جمال فتان، يجذب الرّجال بقوّة؛ حتى ليفقدهم صوابهم!

فوضعها بولاد في قصر يحيط به العسس، وجعل فيه كل أنواع التسلية. فمضت حياتها رتيبة، إلى أن أرشدها بعض خدمها، إلى شخص يدعى فهمو زايد، فاشتاقت أن تلتقي به.

وبالفعل التقت به فحدثها، عن صانع الفخار والعنابسة وعقيدة التخنث، فاشتهت أن تعيش بتولاً تكرس حياتها لعبادة التخنيث.

وعندما تقدّم لها كثيرون؛ من بينهم شاب نبشي غني، إبن لأحد أمراء دار الريح، فاتحها والدها في الأمر، حاسباً أنه يبهج قلبها بهذا النبأ السعيد، ففوجئ باعتذارها عن الزواج.

ولأنه كان على سفر، أرجأ الأمر إلى حين عودته، آملاً أن تكون قد استقرّت على الشاب الذي طلبها.. وكان فهمو زايد؛ قد اقنعها

بالتعبد في غرفتها، أو في أكثر الأماكن خصوصية وسرّية في دارها، فطلبت أم نفل من أبيها قُبيل سفره، أن يبني لها حماماً داخل غرفتها، فلبَّى طلبها، وفتح لها نافذتين لزِيادة الضوء.

وأثناء غيبته؛ حوَّلت الحمّام إلى بيت صلاة، كما أمرها فهمو زايد، أخذت تتعبد فيه لمعبودها الجديد، بصلواتٍ وأسهارٍ وأصوامٍ بلا انقطاع.

وعندما عاد والدها، لاحظ تغييراً بائناً في سلوكها، فسألها عن سبب ذلك. فصارّت تحدّثه عن إيمانها بالتخنث، ودعته للايمان بالرّجل المخنث الأبدي، ليدرك خلاصه، ويستيقظ من النسيان، وقالت:

"فهو في عون عبيده حتى نهاية عصور الجنكويز"

فاستشاط والدها غضباً، وأخذ يوبخها بصرامة، أما هي فلم تبالِ، بل كانت تحدثه بشجاعة لم تعهدها في نفسها من قبل. كانت صريحة وواضحة في تمسكها بإيمانها وبتوليتها!

فثار بولاد، وانقض عليها وجذبها من شعرها؛ وهمّ بضربها بالسيف، فهرّبت من أمام وجهه؛ وانطلقت من باب القصر، فركض وراءها،

حتى لحق بها ووثب عليها؛ وصـــار يضـــربها بعنفٍ، ثم رجع بها إلى القصر.

وهناك وضـــعها في قبوٍ.. وأمام إبن عمه دكَّام؛ روي بولاد ما جرى، وعندما رآها دكَّام؛ الذي لم يعشـــق امرأة في حياته العامرّة بالغلمان، تعلق قلبه بها؛ وصار يوبخ بولاد على قسوته، وأخذ يلاطفها ويعدها بأمور كثيرّة إن أطاعت أمره.

لكنها لم تستجب؛ وقهرّته فغضب وأمر بإلقائها في سجن القلعة. ثم أمر عامله على السجن؛ أن تُساق عارِّية في شوارع البلدة القديمّة.

وعندما انتهوا من المطاف بها؛ إلى الســـاحة الكبيرة؛ التي تتوســـط البلدة، طلب بولاد أن يضرب هو بسيفه رقبة ابنته، فسمح له إبن عمه دكَّام بذلك!

وفيما كانت كل هذه الوقائع والأحداث تجري، كان الخزين؛ كبير حيرّان صـــانع الفخار، ومعلّم الأهالي في غيابه، وأحد أهم معلمي صانعي الفخار الجدد.. منشغلاً بمخطوطات الوصايا النورانية، التي أنهى كتابتها للتو، في الوقت ذاته كان دكَّام قد انتقل من دار الريح،

إلى مقرّه الجديد في البلدة القديمّة، على تخوم دار صـــباح، لقيادة عسس البلاد الأسيرّة بأجمعها.

كان الخزين الذي ينحدر من صـــلب أب من الصـــابئة وأم من الدّهريين، قد وفد للتو قادماً من دبة الناقة؛ ما وراء البحر الملون لدرّاســـة علم الكلام. تاركاً خلفه حبيبته "أم ضـــي" التي تفتحت مراهقته عليها، وعاش معها لســـنوات؛ تذوق فيها حلاوة الحب ومرارته، التي أثمّرت طفلاً وحيداً أسماه "عطية" ســـرعان ما اختطفه منهما القدر؛ فضـاقت (دبة الناقة) و(مراتع الفقرا) باتسـاعهما على الخزين؛ فغادر لا يلوي على شـيء، حتى خط رحاله هنا.. في البلدة القديمّة؛ على تخومِ دار صباح.

ودعت سارّة. وعند عودتي إلى داري، وجدت الشاب الرّخو؛ موفد صانع الفخار، ممدداً على فراشي. وبعينين مقفلتين أبدى مخاوفه من أن تكون الحُمّى قد ألمت به، وهو يشير إلى الجُرح السطحي على ذراعه، فقلت له:

"أنه مجرد خدش بسيط!"

فأشار إلى تقلصات مؤلمة بكتفه. أدركت حينئذ أن جبنه لا علاج له. وبنبرّة أربكته بالتأكيد، طلبت منه أن يعتني بنفسه ثم خرجت.

بعدها، قضينا خمسة أيام في دارٍ سرّية أخرى. نعاني من الاختباء والتخفي؛ من عسس الجنكويز دون أمجاد تذكر.

تلك الأيام الخمسة حسبما أتذكرها، كانت أشبه بيومٍ واحد متصل؟ باستثناء اليوم قبل الأخير؛ عندما اقتحم عدد من صانعي الفخار، إحدى مقار الجنكويز، وتمكنوا من أن يثأروا –كما كان يجب– لرفاقنا صانعي الفخار؛ الذين تم قتلهم بأوامر من دكّام في سجن القلعة.

وكنت قــد تسلّلت بعيداً عن الدّار السرّية في غبش الفجر، ولم أعد إلا بعد أن غَرُبت الشـــمس بقليل. وكان الشـــاب الرّخو؛ لا يزال ينتظرني، معللاً عدم مغادرته؛ بجرحه السطحي!

عندما دخلت؛ وجدته منكباً على قراءة مخطوطة، عن "فن الحرب عند الآشـوريين" فأخذ يتحدث إليَّ، كأنه عثر على إكتشـافٍ خطير بـ:

"أن المنجنيق أفضل من السهام"

ثم أخذ يسألني عن خطتنا في معركة الثأر من الجنكويز، التي كان قد فوجئ بوقوعها؛ دون علمه المسـبق؛ فأنتقدهـــا، كخبير عسـكري بارع. ثم أبدى رّغبته في تغيير كل خططنا؛ بحجة:

"وضعنا التمويلي الذي يُرثى له"

التي أخذ يكررها بكثافة، كأنه يُريد زرعها في ذّهني؛ لتحجب عني أي إمكانية لأي فعل مسـتقبلاً.. ثم أخذ يتنبأ بطريقته السـفسـطائية الكئيبة، بالنهاية المروعة التي تنتظرنا، إذا اســـتمرينا في محاولات الانتقام، مؤكدا بسريانية قحة؛ لم يعد يتداولها أحد:

"إنها قضية خاسرّة"

ولكي يُبدي عدم اكتراثه بطبيعـة الجبن المتأصل فيه، والتي انكشفت أمامي بوضـوح في أكثر من موقف، أخـــــذ يتفاخر ويتباهى بعظمة قدراته العقلية الفذّة.

لقــد انقضت على هذا المنوال، الأيام الخمسة، التي كان أسوأ شيء فيها؛ اضــطراري ملازمته أحيانا؛ والاســتماع لآرائه البائســة؛ التي يحاول صبغها بالإخلاص لتعاليم صانع الفخار.

وفي اليوم الســادس تلقينا رســالة بالحمام الزّاجل من صــانع الفخار، تُخبرنا أن دار الريح كلها ســقطت بشــكل نهائي، في أيدي جنكويز المقدّس سرّه، وطلب عودة مبعوثه بسرعة.

شـهدّت البلدة القديمّة، بعد الهجوم على ذلك المقر، كثافة ملحوظة في عسـس السـواري، الذين أخذوا يمشـطون ليل البلدة، من مغيب الشمس إلى شروقها.

وكان واضـحاً من الوجود الكثيف، لدورِيات الحرّاسة الجنكويزية، أن البلدة القديمّة مقبلة على أيامٍ عصيبة.

فقد رأيت على الأرض، في الطريق المفضي إلى البلدة القديمّة، حيث تهب الرّياح محملة بـــــالتراب؛ الذي تثيره حوافر الخيل؛ ودُّخان الحرّائق، جثة عتام، الذي بعد أن تزوج من الغصـــين، اختفى مع من اختفوا من نُقباء صانعي الفخار، منذ وقت طويل!

كان ما حدّث في دار الرّيح والبلدة القديمّة؛ على تخوم دار صـــباح، أكبر بكثير من كل ما جرى خلف البحر الملوّن، ودبة الناقة ومراتع الفقرا.

فقد كان الجنكويز هناك؛ يتدربون بإطلاق السـهام على أتباع صـانع الفخار؛ كأهدافٍ في ساحاتِ الرِّماية بلا توقف.

في الوقت الذي ملأ السماء نور الصباح خرجت، وقبل أن ينتصف النهار كنت قد عدت، متسللاً بهدوء، فقد قدّرت أن يكون موفد صانع الفخار نائماً، وقد شكى مساء أمس من الحُمّى، وقبل أن أدلف من الباب، المفضي إلى غرفة المخطوطات، سمعت صوته فتوقفت.. في البدء ظننته يتحدث إلى نفسه.. فقد جعلتني نبرّة صوته الهامس، أهمس لنفسي:

"لا شك أن الرّجل فقد عقله"..

ثم سمعته يذكر اسمي، وبعد أن قال لمحدثه أنني سأعود في منتصف الليل، ويصف الكيفية التي يتمكنون بها من القبض علي؛ عند اجتيازي حديقة الدّار.. تأكدت أنه ليس وحده في البيت، فمددت عنقي؛ وأشرعت أُذنيَّ على اتساعهما، ورأيت ظلاً لشخصٍ بدى كقائد جنكويزي.

فلذت بالفرار؛ وكمنت غير بعيد من الدَّار. وعندما خرج ذلك الجنكويزي؛ من عتمّة الدَّار الكابوسية؛ منحدراً في الطريقِ الملتوي؛ المفضي إلى حدِّيقة النخيل المجاورّة؛ شعرت برأسي يدور.

وفيما الأيهم حفيد الأعتم الكبير، يُقلب مخطوطاته العائلية؛ وهو يستعيد ما جرى للغصين ودهيبة، كان قد لاحظ أثناء تجواله في المخطوطات، التي ورِّث بعضها عن أسلافه؛ والأخرى التي حصل عليها من سوق الورّاقين، أن البلاد الأسيرّة لم تكن يوماً منفصلة عن العالم حولها، فحركة القوافل التجارّية منها وإليها، والهجرّات والنزوح والغزو، كل ذلك أسهم في تشكِّيل الثقافة والمعتقدات.

فالمرأة عند العبرانيين القُدامى، وصل تدنيها إلى حد اعتبارهم لها كالخدم المملوك، بحيث يحق لوالدها، أن يبيعها قبل أن تبلغ الحُلُم. فيما جنحت الأساطير اليهودية؛ إلى جعل حواء، المنبع الذي تنشق منه جداول الآلام والشدائد.

وفي فارس بينما كانت الزرادشتية تفضل زواج الرجل من أمه أو ابنته أو أخته. كانت المزدكية، قد نهضت على فلسفةٍ إباحية، تعتبر النساء والأموال لا حرمة لهما، بل العالم كله شريك فيهما، منزلتهما في ذلك منزلة الماء والكلأ والنار والهواء.

فيما تجلت في أساطير اليونان القديمّة؛ امرأة خيالية تسمى باندورا، كينبوع لجميعِ آلام الإنسان ومصائبه!.. ثم لم يلبث اليونانيون

القدامى؛ أن سـهلوا أمر الطلاق تسـهيلاً؛ جعله شـيئاً عادياً؛ يُلجأ إليه لأتفه الأسـباب، وقد بلغ من كثرّته؛ أن جعلت النسـاء يعددن أعمارهن؛ بأعداد أزواجهن.

الأمر الذي دفع الفيلسـوف الروماني سـيكا، وكذلك القديس جروم أن يحكيا عن امرأة تزوجت في المرّة الأخيرّة الثالث والعشـرين من أزواجها؛ أنها هي أيضًـا؛ كانت الزوجة الحادية والعشـرين؛ لبعلها المغرم بالنكاح كخوثرة.

فاليونان والرومان كانا ينظران الى المرأة ككائن او مخلوق من الدرك الأسـفل! وفي غاية المهانة والذل.. فمثلما وضـع الرومان حزام العفة على فرجها؟ وعمد المصـريون القدامى إلى ختنها، اكتفى اليونانيون القدامى بوضـع قفل على فمها، حتى لا تتكلم إلا بإذن ولي أمرها، الذي يملك مفتاح القفل، ومنعوها من أكل اللحم. كما عبر سـقراط أن: وجودها – المرأة – هو أكبر منشـأ ومصـدر للأزمة، ولانهيار العالم، فهي تشبه شجرّة مسمومة، ظاهرها جميل، ولكن عندما تأكل منها العصافير؛ تموت حالاً!

ولم يكن الهنود القدامى بأحســـن حالاً من هؤلاء وأولئك، إذ كان الرّجال يقامرون بزوجاتهم، وقد يربحون فيأخذون زوجات غيرهم، وقد يخسرون فيأخذ الغير زوجاتهم، وكان في شرائعهم:

"أن الوباء والموت والجحيم والسُّـــم والأفاعي، خير من المرأة، وأنها نجس ورجس"

وعند بعضهم:

"المرأة وضعت لإغواء وفتنة الرجال"

وكان من أحكامهم على المرأة:

"ألا تأكل اللحم ولا تتكلم، ولا تضحك".

أما عند الجنكويز قبل ظهور المنتظر، فقد كانت محل تشـــاؤم منذ ولادتها، فإذا ســـلمت البنت من الوأد وكبرت، صـــارت مهضـــومة الحق، فلا ترث، ولا تختار زوجها، وربما لم تشاهده إلا ليلة زفافها.

ولم يكن للطلاق عدد معين، فكان زوجها يُنكل بها، فكلما قاربت من انقضـاء عدتها راجعها مرّةً أخرى، وهكذا، فلا هي متزوجة، ولا هي مطلقة، بل هي كالمعلقة.

أما الجنكويز؛ فلم يكن لديهم نظام أو قانون؛ يمنع الزوج من الزواج نكايةً في الزوجة، فنظام الزواج عندهم تأسس على الإباحة والتعدد، بلا نهاية.

وكان من حق الولد أن يتزوج امرأة أبيه إن مات، وكانت المرأة تورَّث بعد وفاة زوجها، ضمن سقط المتاع الذي يخلفه وراءه!

كما أنها كانت عند الرومانيين جسـم بلا روح، وفقاً لما توصـل إليه أحـد مؤتمراتهم في القرن الخـامس للميلاد، للبحـث عن هـل المرأة جسـد بلا روح، أم لها روح؟ فسـار الروم على خطاهم، إذ عقدوا مؤتمراً في القرن السـادس الميلادي؛ للبحث عن هل المرأة إنسـان أم غير إنسان؟ وبعد أخذ ورد قرروا أنها إنسان قذر خُلِق لخدمة الرجل!

وأحيانا يكون الأزواج الذكور إخوة، كما في المجتمعات الآسـيوية، الهندية، فالملحمة الهندوسـية مهابهاراتا تسـتعرض الحسـناء دروبادي

وهي برفقة أزواجها الأشقاء الخمسة. وقد ورث الباهاريس الهنود؛ هذا الزواج من أجدادهم الذين سكنوا سهول الهملايا، حيث تزوج البنت للأخ الأكبر في العائلة؛ وتتحوّل زوجة لإخوانه الأصغر كذلك، مشتركين بذلك بشكل متساوي في الزوجة.

وقتها وأفكار العالم القديم حول المرأة على هذا النحو، كان يسكن البلاد الأسيرّة نوعان من النّاس الحضريين، مزارعي القمح والتمر والنخيل في الواحات، وعلى شريط الأنهر وصحراء دار الريح، والرُّعاة في السهول ما بينهما.

وقد كان الرُّعاة (الرُّحل) يغزّون أهل الحضر، ويسبونهم ممتلكاتهم وحيواناتهم ونساءهم. وكان هؤلاء يخضعون لكبير القوم سيد القبيلة.

أما أهل الحضر، فكانت لهم آلهة يعتقدون في سلطتها وقدرتها الفائقة؛ وهي أرواح تسكن الشجر والحجر.

وتدريجياً، حوّل أهل الحضر آلهتهم؛ إلى معابد يسعون لحمايتها، واعتبروها حُرُما لا تمسَها الحروب؛ فكانوا يمارسون شعائرهم حول الضريح الكبير. إلى أن فطن بعض أذكيائهم، إلى أن "السلطة على

المقدس" قد تكون مصـدّر قوّة، وقد تمهد الطريق إلى السـلطة على المدنس؛ "الدنيوي".

وبعد حرب ضـــروس بين ســـيد بني جمر عمرو الجمري، وقبيلتي النبشيين والحناجرة، استطاع أبي ليل الظلامي الكبير سيد الحناجرّة، أحد أسلاف المنتظر، أن ينتزع السلطة على الضريح العتيق.

ولما تولى ســـيد الحناجرة أبي ليل أمر البيت العتيق والبلدة القديمّة، جمع قومه من منـازلهم في الجبـال حول مراتع الفقرا، ورحـل بهم إلى البلدة القديمة، في قلب مراتع الفقرا، واضـــعاً يده عليها، وخاطب قومه قائلاً:

"هـل لكم أن تصـــبحوا بأجمعكم في الحرم، حول البيـت؟ والله لا يســـتحل القوم قتالكم ولا يســـتطيعون إخراجكم منه، وتســـكنونه فتسودون الأقوام أبداً".

فأجابوه:

"أنت سيدنا، ورأينا تبع لرأيك".

فجمعهم ثم أصبح في الحرم حول الضريح العتيق، ومراقد الغرباء، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، وحاز شرف مراتع الفقرا كلها.

وقتها كانت كل الأقوام المجاورّة بمختلف عقائدها، تختلف على كل شيء، إلا أنها تجمع جميعها؛ على تقديس الضريح العتيق فتحُج إليه. وهكذا، بعد أن وُليَّ أبي ليل أمر البلدة القديمّة، قال مخاطبا قومه:

"يا معشر الحناجرّة، إنكم جيران الضريح، وللضريح سيد وحرمة، وإن الحجاج زوّاره أضياف سيدِّه، وأحق الأضياف بالكرم أضياف السيد، فترافدوا فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج؛ حتى يعودوا إلى قومهم، ولو كان مالي يسع ذلك لقمت به وحدي".

هكذا، فرض أبو ليل عليهم خراجاً، يخرجونه مرتين من أموالهم، فيدفعونه إليه، يشتري منه طعاماً وشراباً ولبنا وغير ذلك للحجيج؛ ومضى على ذلك، حتى ظهر المنتظر، في مراتع الفقرا.

وكانت تقام أسواق قُرب وحوالي البلدة القديمّة، مثل سوق الشعراء الشـــهير بمســـابقاته الشـــعرية، وســـوق الوراقين الذي كان يعج بالمخطوطات وســـوق "ذي الروكا". الذي تجد فيه كل شـــيء من خيرات القوافـل والغزوات، بـدءً بالعطور والحرير والخمر؛ مروراً بالعبيد والسبايا والعاهرات، اللاتي يعرضـن أنفسـهن على الموسـرين. وهذا كان يعني رواجاً تجارياً كبيراً.

لقد حوّل أبو ليل بقراره هذا؛ قبيلة الحناجرّة من قبيلة ضعيفة تسكن الجبال والوديان، ونواحي الصـعيد والسـافل ودار الريح، إلى قبيلة تُمسك بزمام السلطة والغنى في مراتع الفقراء المقدسة.

قبيلة اسـتطاعت، فيما بعد، أن تسـكن وسـط الحرام، وتتحول إلى أنبل وأشرف القبائل في البلاد الأسيرّة، وهو ما سيواصل أحفاد أبي ليل الظلامي، العمل به والسير في طريقه؛ باقتدار عجيب!

وبظهور المنتظر بدعوته إلى تجاوز كل عقائد صـانعي الفخار القدامى وســواهم، وإلغاء الوثنية النبشـية، كان يصـيب في مقتل امتيازات أعيان الجمريين، التي نهضت على أساس المقدّس.

ولعل هذه الخسارّة تفسر، معارضة القبائل المؤثرة كالجمريين، لعقيدة المنتظر، وللمنتظر شخصياً، لكونه ينتمي للنبشيين والحناجرّة، وفي منعةٍ منهم.

وصل بهم العداء حد محاصرته، والسعي إلى التخلص منه بشتى السُبُل، مما أجبره بعد عقود من المعاناة، إلى الهجرّة إلى دبة الناقة، حيث سيضع بدوره الأسس الأولى، لنشأة الإمبراطورية الحنجورية العظيمة مترامية الأطراف.

وبعد وفاته تولى السلطة صاحبه المقرّب الرّسن بن عقال بن أبي الرّسن الحنجوري، الذي كان المنتظر يقول عنه دائماً:

"لو كنت متخذاً خليلاً، لاتخذت صديقي الرّسن خليلاً".

بعد وفاة المنتظر بويع الرّسن خفية. في دار الغلاط، وبذلك أصبح أول أمراء البلاد الأسيرّة. فيما استغلت كثير من القبائل الطامحة في السلطة، وفاة المنتظر، لتكشف عن نواياها فتحرّشت بالأمير الجديد، وامتنعت عن دفع الضرائب والمكوس، الأمر الذي أغضب الرّسن فقال:

"والله لو منعوني عُقالاً، كانوا يؤدونه إلى المنتظر، لقاتلتهم دونه".

أنفق الرّسن وقتاً ليس قليل، إلى أن تمكن من بسط سلطته وسطوته. وبعد انتصارّه على امبراطوريتي الجوار، توفي مسموماً كما أشاع البعض وقتئذ. إذ ظلت تحيط بوفاته، الكثير من الألغاز، التي انعقد عليها ضباب كثيف جاعلاً، منها سراً يصعب معرفته.

ففي قصة موته روايتان، لا تغلب إحداهما كفة الأخرى. تقول الرواية الأولى، إن الرّسن اغتسل في يوم بارد فألم به المرض، ثم لازم فراشه أسبوعين لا يخرج للناس، طالباً من صاحبه الصّمصّام؛ أن يُصّلي بالناس عِوضاً عنه.

فيما تفيد الرواية الثانية، أن العبرانيين والنصارّى وأصحاب عقيدة التخنيث، عملوا على تسميمه بالأرز، وقيل أيضا أن السُّم وُضع في هريسة، أكل منها هو والأرقم السعدي، فكف الأرقم عن الأكل وقال:

"ارفع يدك يا خليفة المنتظر، إن فيها لسم سنة.. وأنا وأنت نموت في يوم واحد"

وكأن الأرقم قد خمن قدرهما، فقد ظلا عليلين إلى أن ماتا في يوم واحد عند انقضاء السنة. فتولى بعده صديقه الصّمصّام، الذي أهتم بالإدارة والعمران والجيش، والتوسع الخارجي. وحقق في ذلك كثير من الإنجازات، إلى أن توفي مقتولاً هو الآخر.

كان الصّمصّام قد اتصف بالعدل. وتميز بشدّة البأس، منذ سني صباه وشبابه الباكر، حتى أن المنتظر كان عندما يرد ذكر اسمه، يقول أمام أتباعه:

"اللهم أعز دعوتي بالصّمصّام"

فقد كانت دعوة المنتظر أول أمرها في الخفاء، ذلك أن معتنقيها كانوا يخافون أهالي البلدة القديمّة، من الجمريين. خوفاً لا يقل عن خوفهم من قبيلة الحناجرّة الكبرى، وبطونها وأفخاذها ممن بقوا على عقائد آبائهم. ولذلك انضمام رجل قوّي كالصّمصّام؛ كان يصنع فرقاّ كبيراً في تثبيت ونشر الدعوّة الجديدة.

في يوم من الأيام، جاءه غلام؛ اسمه ذُهيب الخرصاني، يشتكي له من شدّة الخراج، فقال الصّمصّام :

"ما خراجك بكثير"

فانصرف الغلام متذمراً. بعد أيام، دعاه الصّمصّام وقال له إنه أُخبر باستطاعته صُنع رّحى تطحن بالرّيح، فأجابه ذُهيب قائلاً:

"لأصنعن لك رّحى يتحدث النّاس بها"

وهكذا صنع ذُهيب خنجراً ذا رأسين، مشحوذاً بالسُّم. وعند الفجر، فيما الصّمصّام يوقظ القوم للصّلاة، تسلل ذُهيب بين النّاس، وسدد إليه ست طعنات، القاتلة منهم كانت تحت سُرّته.

فصّلى صديقه الجود بالنّاس، وجئ للصّمصّام بنبيذ؛ فشربه فخرج من جُرحه، ثم سقوه لبناً وخرج هو أيضاً. عندما سأل الصّمصّام عمن طعنه، قِيل له ذُهيب الخرصاني، فقال:

"الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على رجل؛ يدعي أنه من اتباع المنتظر".

أوصى بعد ذلك ابنه المحمود، ثم مات ودُفن كما أراد بجانب صاحبيه المنتظر والرّسن.

ما بعث على قتل الصّـــمصّـــام، هو الانتقام منه بســـبب تهدُّم الإمبراطورية الخرصـــانية على يدّه، وأيضـــاً حُرقة قاتله، وحقده على الصّمصّام بسبب استرقاقه الواسع للخرصانيين، بعد انتصاره عليهم.

حين طُعن الصّمصّام، أوصى بالتفاكر والحوّار لاختيار من يأتي بعده، فيمن بقي من الأصـحاب المقرّبين من المنتظر، فبُويع منهم الجود بن عطية الأعتمي، الذي استمّر في توسعات سلفه العسكرية، إلى أن قُتل هو الآخر، وأفضـــى قتله إلى نتائج كارثية، لم يمحها الزّمن، إذ ظلت تهيمن بوقائعها وأحداثها، وتشـكيلها لسـياسـات وتوجهات البلاد الأسيرّة إلى الأبد!

فلولا مقتله لما جرّت حروب بين أصـــدقاء الأمس رفقاء الدعوّة والغزو، ولما انشـــطرت الأمة في البلاد الأســـيرّة إلى طوائف، وفرق تلعن كل منها الأخرى.

كان الجود بن عطية معروفاً بالحياء واللين والعطاء وســـخاء النفس واليد، وقد قال فيه المنتظر لأصحابه:

"رحم الله ابن عطية. هذا رجل تستحي منه الملائكة"

وأضاف:

"أرحم أمتي بأمتي الرّسن، وأشدّهم في عقيدتي الصّمصّام، وأصدقهم حياءً الجود".

السنوات الأولى من خلافة الجود كانت عادية؛ بل وكان أحب إلى النّاس من الصّمصّام، لما ظهر عليه من لين وسخاء. لكن مع نهايتها، كتب الجود لابن عمه الحكم بن أبي ليل، خُمس ما وراء المحيط، وصب الأموال على أقاربه من بني الأعتم، كما ولاهم على شعوب البلاد الأسيرّة، في الإمبراطورية الواسعة مترامية الأطراف، فأنكر النّاس عليه ذلك.

وفي الحقيقة أن اعتماد الدولة، على بني الأعتم في الإدارة، هو أمر لم يسنه الجود؛ فقد سبقه إليه الرّسن الصّمصّام، وذلك لأنهم كانوا يهتمون بتعليم عيالهم القراءة والكتابة، خلافا لقبائل نبش التي كانت زاهدة في التعليم، ولذلك كانوا هم المؤهلين، لإدارة هذه الامبراطورية المترامية الأطراف، أكثر من غيرّهم!

ممارسات الجود إذن فُسرت على عكس ما أراد، فأوقدت الغضب في صدور الناس، وأصبح له معارضون كُثُر، على خلفية سياساته المالية والإدارية، من بينهم عدد من أصحابه، رفاق الطفولة والصبا والشباب والدعوة والغزو.

هناك أكثر من رواية حول مقتله، لكنها تتفاوت في عدد القتلى، والكيفية التي تمت بها العملية، بينما تحافظ على نفس المتن والدموية.

أهمها الرِّواية التي تتعلق بالجهم بن الرّسن؛ أحد أكثر معارضيه نغمة، وتقول إحدى الرِّوايات، أنه تسلق دار الجود؛ في ثلاثة عشر رجلاً؛ ودخل عليه، ثم أخذ بلحيته قائلاً:

"ما أغنى عنك الحكم.. ما أغنى عنك أبناء عمك، ما أغنت عنك محاباتك لهم"

فقال الجود:

"أرسل لحيتي يا ابن أخي، فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت"

فقال الجهم بن الرّسن:

"ما يُراد بك، أشد من قبضتي".

وطعن الجهم بن الرّسن جنب الجواد بمدية حادة، ثم تعاون عليه ورجاله بسيوفهم حتى قتلوه، وحين حاولت زوجته ست النساء الأعتمية، أن تمنع عنه السيف، جز الجهم أصابعها.

بعد قتل الجود، تولى صاحبه العدل زُمام الأمور، لكنه لم يستطع تنفيذ القصاص في قتلة الجود، إذ أطبق قتلة الجود بدعم واسع من أهالي دبة الناقة، ومراتع الفقرا على مفاصل الدولة في البلدة القديمة. لهذا، رأى العدل أن يتحين الفرصة الملائمة، لكن بعض رفاق الدرب؛ وعلى رأسهم سابح بن زُهرّة وهشابة بن الصّم؛ الذي كان قد فدى المنتظر بروحه في الغزوات؛ التي حارب فيها معه؛ حتى أنه قال فيه:

"لكل منتظر حواري؛ وحواري من أمتي سابح".

رفض سابح ما اسماه "تباطؤ العدل في الاقتصاص للجود". فيما يرى البعض الآخر أن العدل أجل القصاص لسببين، أولهما أن من

الحكمة انتظار أن تسكن الفتنة، ثانيهما، استكمال أخذ البيعة من الأمصار وعزل الولاة، الذين نصبهم الجود؛ فتسببت توليتهم؛ في ثورَّة وحنق أهالي البلاد الأسيرَّة على الجود وقتله.

أما خروج سابح وجماعته؛ عن طوع رفيق دربهم العدل، فكان لأنهم طمعوا في مناصب ولم ينالوها –حسب البعض– فاتخذوا من القصاص للجود؛ حجة لعزل العدل أو قتله. فيما يرى آخرون؛ أن قناعتهم بما فعلوا كانت صادقة، وأنه لم يكن من بينهم طامع في سلطة أو جاه.

وأياً كان الأمر؛ فقد بدا واضحاً أن كل واحد من الجميع، يرى الأمور من موقعه هو، الذي ليس بالضرورة موقعاً؛ يمكنه من تقييم ما حدث بتجرد!

لكن الثابت، أن إحدى زوجات المنتظر، حرّضت النَّاس على قتل الجود، إذ كانت تقول:

"أقتلوا الجود فقد كفر"

كما أنها دقت على دلوكة الورّل – طبول الحرب – وحرضت سابح وجماعته على محاربة العدل. وقد كانت العلاقة بين بعض أفراد هذه الجماعة؛ بالجود في عهد خلافته، على أحسن ما يُرام، لما يجزل لهم الأخير من الأعطيات.

وحين بدأت الثورّة عليه؛ انحازوا إليه. إلا أنه لما ساءت الأمور، انحاز بعضهم إلى مطالب الثوار. وفي موقعة البعير التقى الجمعان؛ فقاتل سابح ساعة من الزّمن، حتى نادى عليه العدل قائلاً:

"يا سابح؛ أتذكر يوم مررت مع المنتظر؛ في بني الناقة، فنظر إليَّ فضحك وضحكت إليه؛ فقلتَ: لا يدع العدل زّهوه، فقال لك المنتظر: صّه، إنه ليس به زّهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم له"

لحظتها طأطأ سابح رأسه؛ كمن أفاق من غيبوبة طويلة، ثم ترك القتال نادماً، ومضى يقصد البلدة القديمّة. لكنه في طريقه إليها، لحق به رجل من أتباع العدل يسمى ابن تلمصاني فقال له:

"أتيت تحرض النَّاس على بعضهم، ثم تريد الآن تركهم يتقاتلون ناجياً بنفسك، ورَّب المنتظر لا أتركك على قيد الحيَّاة"

وغافله إبن تلمصـــاني وقتله في مكان يعرف بوادي المرفعين. ثم أقبل بعد ذلك على العدل بسيف سابح، فقلبه العدل بين يديه، وقال:

"سيف والله طالما جلى به الكرب؛ عن وجه المنتظر"

ولما استأذن إبن تلمصاني فيما بعد؛ ليدخل إلى العدل قال الأخير:

"ائذنوا له وبشروه بجهنم".

ولم يكن ســابحاً وحده قد فعل ما فعل، ففي مقامه صــاحب المنتظر هشابة بن الصُّم، الذي كان من قوم الرَّسن، وقد سبق وتزوج بأربعةِ نساء، إحداهن بنت الرَّسن نفسه، وفي غزوات الهبايب والكتاحات الأولى، سطر هشابة بن الصُّم؛ صفحات البطولة بدمائه، ذلك أنه زاد عن المنتظر بروحه وبدنه، إذ امتلأ جسده بأربعة وعشرين جرحاً، كما شُـلت إحدى أصـابعه. وبرغم جراحاته البليغة، فقد كان مديد العمر، وكان المنتظر يقول لأصحابه عنه:

"من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على رجليه، فلينظر إلى هشابة بن الصُّم ."

كما سُمع عن العدل في موقعة البعير يقول:

"سمعت المنتظر يقول: سابح وهشابة جاراي في الجنَّة".

وكان سابح وهشابة بعدما بايعا الجود، سرعان ما انقلبا عليه. كما أن الخلافة آلت إلى العدل، الذي ما كانت زوجة المنتظر المحببة توده، ولذلك حين استعرّت موقعة البعير، دعا العدل هشابة وقال له:

"يا هشابة أجئت بعروس المنتظر تقاتل بها، وخبأت عروسك في البيت؟".

فاستحى هشابة وترك ساحة المعركة. فلحق به الحكم بن الأعتم، ورّماه بسهم أصابه في رقبته خارجاً من فمه.

لكن البعض يقول إن الحكم تسلل وراءه؛ فرماه بسهم وقع في ركبته، ثم التفت إلى حمدان بن الجود وقال له:

"قد كفيناك بعض قتلة أبيك".

وبعد انتهاء موقعة البعير، مر العدل بهشـــابة وهو في وادٍ مُلقى كالجيفة، فنزل إليه ومسح التراب عن وجهه، وقال:

"عزيزٌ علي أبا الصُّم أن أراك مجندلاً في الأودية؛ تحت نجوم السماء، إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري".

بعد معارك الوادي والجبل والناقة والبعير الشـــهيرات، اجتمع في البلدة القديمّة، ثلاثة رجال يعتقدون في التخنيث، فتذاكروا أمر أهالي البلاد الأســـيرّة فعابوا أعمالهم؛ ثم ذكروا أهل الوادي والجبل والناقة والبعير وترحموا عليهم، وقالوا لبعضهم بعضاً:

"لو أننا نأتي أئمة "الضـلال" وفي مقدمتهم العدل فنريح منهم العباد والبلاد"

وهكذا، تطوع رجل منهم اسمه ابن الخيزران وقال:

"أنا أكفيكم العدل".

ولما حانت الليلة الموعودة، خرج ابن الخيزران وصـــاحب له اسمه الأعرج، إلى العدل في مقره بالبلدة القديمّة، ثم وقفا يتربصـــان به

ينتظران خروجه، ليوقظ النّاس في الفجر. وعندما أقبل وبصـــحبته المؤذن برفقة ابنه المحسن، فاجأه ابن الخيزران وصاحبه، وهما مشهران سيفيهما ويصيحان:

"إن الحكم لله لا لك يا عدل".

هوى ابن الخيزران بســـيفه على جبين العدل، فيما أخطأه ســـيف الأعرج، ثم وقع العدل مضـــرجاً بدمائه. وقد جيء للعدل بالأطباء لينظروا في حاله، وكلما خرج أحدهم من عنده قال في يأس:

"ليس للشفاء من حيلة"

حُمل العدل إلى مجلسه وهو يغالب جُرحه، ثم قال بعد علمه بالقبض على ابن الخيزران:

"أطيبوا طعامه وألينوا فراشـــه، فإن أعش فأنا أولى بدمه عفواً وقصاصاً، وإن أمت فألحقوه بي أخاصمه عند رب المنتظر".

فبقي العدل على حاله تلك ليلتين؛ ينازع فيهما الموت حتى فارق الحيّاة، ثم أُلحق به ابن الخيزران، كما أراد العدل محروقاً ومقتولاً.

وبموت العدل، كانت قد مرّت ثلاثون عاماً. منذ غادر المنتظر الحيّاة، وقُتل خلفائه واحداً تلو الآخر.

بعد اغتيال العدل بايع الناس ابنه المحسن طوعاً. ودخلت الامبراطورية الصاعدة كلها في طاعته، ما وراء البحر الملون وبلاد النّهرين والبحر المالح. والتي كلها كانت تحت نفوذ الطرباق بن الأعتم بن أبي ليل الظلامي. وأخوه درع الهلاك وأبناء عمومته من بني الأعتم.

فاضطر المحسن بن العدل للتنازل طواعية مؤقتاً، لحساب الطرباق بن الأعتم بعدما تراسلا، ووضعا بضعة شروط وافق عليها الطرباق.

وكان الطرباق بن الأعتم الرجل المناسب، الذي ادخرته الأقدار ليقود سفينة بني الأعتم؛ في مرحلة دقيقة ومفصلية من تاريخ الأسرّة.

والحق أن هذا الصلح لقي استحسان كثير من النّاس، إذ رأوا فيه حقناً لدماء أهل البلاد الأسيرّة ونسيجهم، بعدما مزقته الفتن والحروب.. لكن، بعض أنصار المحسن؛ عابوا عليه تفريطه في السلطة للطرباق ابن الأعتم، وأخذوا ينادونه:

"يا عار المؤمنين"

"والسلام عليك يا مذل المؤمنين".

بعد هذا الاتفاق، اعتقد المحسن؛ أن الخلافة ستعود إليه حتماً؛ إذ أن الطرباق بن الأعتم كان حينها يكبره بعشرين عاماً، وهو للموت أقرّب، بيد أن الأخير كان له رأي آخر.

كان الطرباق؛ يريد أن يورث ابنه الأعتم الثاني الخلافة من بعده، وبوجود المحسن على قيد الحيَّاة، لن يتحقق له هذا الطموح.

ومن ثم، فالحل الوحيد أمامه، هو التخلص من المحسن؛ ولو كان ذلك بقتله. مثلما أشار عليه ابن عمه الحكم بن أبي ليل؛ وهكذا.. اتفق الطرباق عن طريق الحكم؛ مع إحدى زوجات المحسن، على تسميمه في شرابه، مقابل ألف درهم؛ وتزويجها من الأعتم الثاني.

وبعد أن نفذت زوجة المحسن ما بينهما من اتفاق، منحها المال، لكن رفض تزويجها ابنه، خشيةً عليه منها، وهي التي سبق أن سممت زوجها المحسن.

وفي الحقيقة أن مهندس الاتفاق، الحكم بن أبي ليل هو أيضاً ابن عم الجود خليفة المنتظر القتيل وولي دمه، وقد منحه الأخير إبان خلافته أموالاً طائلة ووظائف رفيعة، كما زوجه ابنته ومنحه خُمس غنائم ما وراء المحيط، وأغلب الظن أن عمره، كان في أول العشرينات، حينما اتخذه الخليفة الجود وزيراً له.

وكان المنتظر في حياته، قد لعن الحكم بن أبي ليل، وهو لا يزال بعد رضيعاً!.. إذ كان لا يولد لأحد بدبة الناقة ولد، إلا وأتى به عند المنتظر فدعا له، وذات يوم أُدخل عليه الحكم عند ولادته فقال:

"هو الملعون ابن الملعون".

وقد كان أبي ليل؛ حين فتح المنتظر البلدة القديمّة، جاءه مستسلماً؛ لكن ذلك لم يكن غير تقية للموت، إذ كان لا يكف عن كيل الشتائم للمنتظر، وغمزه وتقليد حركاته. ثم، في يوم من الأيام، اطلع على المنتظر مع احدى زوجاته، وهو معها في حجرة من حجراته، فخرج إليه المنتظر غاضباً، وقال:

"من عذيري من هذا الملعون؟"

ثم أمر أن يُطرد من البلدة القديمّة وأهلها، وقال:

"لا يُساكنني فيها أبداً".

وعندما قتل الثوّار الجود في داره، انضم الحكم بن أبي ليل إلى المطالبين بدمه، في حربهم ضد العدل، بدعوى تقاعسه عن القصاص، من قتلة قريبهم الجود. غير آبهين ببيعة الأهالي له.

وبعد أن أُغتيل العدل فيما بعد، وآلت الخلافة إلى الطرباق، نصب الأخير الحكم بن أبي ليل على ولايات الصحراء والبحر، فمكث بها سنيناً، إلى أن مات الأعتم الثاني بن الطرباق بن الأعتم.

وكان فيما مضى، عندما قدم الحكم بن أبي ليل، إلى بلاد النّهرين؛ وكان حبل بني الأعتم قد اضطرب، فمال بعضهم إلى مبايعة الأعتم الثاني، فيما مال البعض الآخر إلى مبايعة عمه الحكم، وذلك ما كان..

وما أن بويع الحكم؛ حتى تزوج من أم الأعتم الثاني بعد أن سرّحها الطرباق، ليُصغِّر بذلك من شأن الأعتم الثاني ويُحقرَّه.

وفي يوم من الأيام، دخل الأعتم الثاني على عمه الحكم، وعنده جماعة من النّاس، فزجره الحكم قائلاً:

"والله إنك لأحمق! تعال يا ابن الرطبة الأست!"

فرجع الأعتم الثاني غاضباً إلى أمه وأخبرها، فما كان منها؛ إلا أن تحينت الفرصة للانتقام من الحكم. وهكذا، في إحدى الليالي، وضعت أم الأعتم الوسادة على وجه الحكم؛ وهو مستغرق في نومه، ولم ترفعها حتى تأكدت من موته.

لكن ذهب البعض إلى أنها، سقته لبناً دست فيه السُّم، وقيل أيضا إنها أمرت جواريها، فخنقنه وهو نائم!

مضت سفينة بني الأعتم؛ لقرون على سيرتها ذاتها؛ التي فيما أعلت من شأن بني الأعتم، حطت من أقدار غيرهم. فاحتكروا موارد الدولة لأنفسهم، وطبقوا القوانين الصارَّمة على النَّاس، فيما اعطوا أنفسهم حرِّية مطلقة لفعل ما يريدون.

وهكذا ولد مع ميلاد دولتهم على يد الطرباق، النّهج الجنكويزي الذي ساد باطشاً بأهالي البلاد الأسيرَّة، من المحيط إلى الخليج.

إلى أن تولى زمام الأمر الصـــمصـــام الثاني. الذي منذ أول يوم في خلافته، سار في طريق الإصلاح، وعقد العزم على إعلاء كلمة الحق والعدل وإسقاط الجور والظلم، غير أن قومه من بني الأعتم كان لهم رأي آخر.

كان جد الصمصام الثاني من جهة أبيه هو الطرباق الخليفة المؤسس لدولة بني الأعتم، أما جده من جهة أمه فهو الخليفة الصـــمصـــام الأول.

وهو الوحيد بين خلفاء المنتظر، الذي حُظي بمحبة اتباع المنتظر كافة، بمختلف طوائفهم.. ونال تقديرهم وتبجيلهم، لما اشتهر به من العدل والزهد والتواضع والورع.

بعد مئات الســـنوات.. بعد أن زالت دولة بني الأعتم من الوجود، وتولى أحفاد العدل أمر إرث جدّهم العدل وأشـــقائه، روى عنه الصمصام الثالث الذي تأسى بسيرته قائلاً:

"إني لأستحي؛ أن يكون في بني الأعتم من هو مثل الصمصام الثاني، وألا يكون في بني العدل مثله".

منذ أول يوم في خلافته، سار الصمصام الثاني في طريق، غير الطريق التي اعتادها أهل البلاد الأســـيرّة من بني الأعتم. إذ بدأ بأهل بيته، عندما أخذ حُلّي وجواهر زوجته، وردها إلى بيت المال. وضـيق على بني عمه الأعتميين، فشُحت أموالهم فتأففوا منه!

وهكذا، تآمروا للقضـــاء عليه؛ فلم تدم خلافة الصـــمصـــام الثاني؛ سوى عامين ونصف؛ إذ مات متأثراً بسُّم دسه إليه أمراء بني الأعتم؛ بعد أن استيأسوا منه.

وبعد أن سُقي السُّم، سأل أحد أصحابه:

"ما يقول فيّ الناس؟"

قال: "يقولون إنك مسحور"

فأجابه: "ما أنا بمسحور"

ثم دعا غلاما له، وسأله: "ويحك، ما حملك على أن سقيتني السُّم؟"

فقال الغلام المرعوب: "ألف دينار أُعطيتها، على أن أُعتق"

فقال له: "هاتها"

فجاء بها فألقاها في بيت المال، ثم قال له: "اذهب حيث لا يراك أحد".

وقد توفي ابنه وأخيه ومولاه في أوقات متقاربة، وفي ظروف غامضة.. فقد عرفوا أيضاً أنهم أشد منه، في استعجال تطبيق سياسات الإصلاح.

الخمارّات وليال أنس علية القوم، في دُور البلدة القديمَّة، بمثابة مصدراً من مصادر العسس، في معرّفة الأسرّار؛ التي تمور بها البلاد الأسيرَّة، إذ كان روادها الأثرياء، الذين بعضهم من قادةِ الجُند والعسس وأمراء العائلة المالكة، والشعراء والمتكلمين وبعض الفقهاء، من أتباع الطوائف والجماعات السرِّية..

جميعهم لديه شلة ما يلتقيها في خمارَّة، أو دار.. يتحدّثون غالباً حول الزّحف المغولي، وصراعات الأسرَّة المالكة؛ والزنادقة..

ويثرثرون عن من تمت ترقيته في الدولة، ومن طُرد من عمله، ومن اختلس وسرق ونهب؛ ومن تآمر.. ومن كتب قصيدة بذيئة، أو ألف مخطوطاً ينضح بالإلحاد.

كانوا يتناقشون ويتجادلون؛ وأحياناً يتعاركون بالأيدي، خاصةً في الأوقات التي يتوفى أو يقتل فيها أمير، ويتقلد السلطة ولي عهده، أو يتآمر أمير آخر، على ولي العهد؛ ويسعى لانتزاع السُلطة لنفسه.

الأمر الوحيد الذي اتفقوا بشأنه، كان أن صانعي الفخار هم سبب كل المشاكل في البلاد الأسيرَّة، وأن طلبة العلم والفقهاء؛ يعيشون

في أبراج عاجية، وأن العبيد والإماء أصبحوا يشعرون كأنهم سادة، إذ يتحدون إرادة سادتهم..

وبخلاف ذلك، يمدح كل شخص ذاته، أو يشكو أحواله. وحين يستبد السُّكر بأحدهم، قد يطلب خمراً معتقة لكل شخص. حتى أن فقراء البلدة القديمّة، كانوا يأتون إلى الخمارّات، طمعاً في مثل هذه الهبات، التي يوزعها الأمراء الفاشلين، والولاة السابقين؛ وموظفي الدولة الذين دالت بهم الدول؛ ومحدثي النعمة، الذين حلوا محل كل هؤلاء وأولئك.

"كان واضـــحا لي؛ أن مبعوث صـــانع الفخار يخطط لشـــيء ما من خلف ظهر ســـيده. وأن هذا الجنكويزي الذي وشـــى بي إليه، يعرف هذه الدار جيداً، وأنها ليست المرّة الأولى، التي يرتادها ويلتقي موفد صانع الفخار"

تنهد الخزين وهو يستدرك:

"بدأت أشك في صانع الفخار نفسه".

كان الشاب الرَّخو يعرف الدروب أكثر مني. إذ أنه نجح في الإفلات من تتبعي إياه أكثر من مرّة، إلا أنني أدركته وحاصـــرته في أحد الأركان، وقبل أن يأتي العســس ويمسـكوا بي، خطفت سـيفه المقوّس القصير من جرابه، ووسمت وجهه إلى الأبد!

فيما كانت البلاد الأسيرة؛ تمور بالمؤامرات والدسائس في صرّاع السلطة والثروة، كانت ثمّة طوائف وفرق وجماعات تنمو في الظلمة بهدوء.. بعضها مجهولة التأسيس والنسب، وبعضها مُختلفٌ عليها، وبعضها أشبه بأصداء لحنين قديم للديانات والعقائد البائدة، التي جرفها سيل دعوّة المنتظر.

من بين هذه الطوائف –كما لاحظ الأيهم في مخطوطاته العتيقة– برزت إلى الوجود طائفة، تمرّدت على طائفة صانع الفخار الأم، وأطلقت على نفسها اسم العنابسة، والتي عُرفت بأسماء عديدة.

اشتهر اتباع العنابسة بالفحش وتجارة وتدخين الحشيش والتخفي، والبراعة في القتل والقتال. ورُغم ما واجهوه في نشر دعوتهم الغامضة، من عوائق التكفير والاتهام بالتبديع، إلا أنهم تمكنوا من الاستمرار ومواجهة كل التهديدات، لتصبح طائفتهم مركز نفوذ وتأثير في حيَّاة الامبراطورية مترامية الأطراف.

فلعبت أدواراً عديدة، في المناطق التي تواجدت فيها، إذ عملت على إيواء الناس وتطبيبهم وتنظيم حياتهم الاجتماعية، وأمنتهم على

أنفسهم. فكانت أشبه بشرطة في بسط الأمن. أو دولة داخل الدولة.

وواجهت الكثير من القبائل المناوئة لها، واصطدمت بها في كثير من الأحيان، عدا عن أدوارها في الصرّاعات داخل قصور الخلفاء والأمراء، ودواوين البصاصين والعسس والجند.

وكان العنابسة، يُفضلون مؤسس طائفتهم على المنتظر، بعدما اعتبروه شريكاً له في البداية، بل أفرطوا في محبته، إلى أن "جعلوا له قدماً في الألوهية".

وعُرف عن أتباع العنابسة الزُّهد والتصوُّف، فيما اتهمهم معارضوهم بالإباحية والتهتك والزندقة.

فبينما كان أتباع الطائفة يقدمون أنفسهم، على أنهم عرفانيين، كان معارضيهم ينظرون إليهم على أنهم طائفة بدعية، وجماعة تظاهرت بخلاف ما تبطن من عقائد هدَّامة، تشوش على الوحدة العقائدية والمذهبية، التي قال بها المنتظر.

وأنهم فرقة منحرفة، تتبع معتقدات وأحكام، تتصـــادم مع قواعد عقيدّة المنتظر، ومبادئ الأخلاق العامة، كما ذهب بعض هؤلاء المعارضين، إلى أن لهم كتاباً يسمى الطلسم اتخذوه بديلاً عن الكتاب الذي جاء به المنتظر، وزعم البعض الآخر أن الطلســـم ما هو إلا مناجاة شيخهم مع الله، كما نسبوا إليهم عدداً من البدع الأخرى.

ولم يكن بالإمكان التفريق بين اتهامات خصـــوم الطائفة، ودفاع أتباعها. فقد كان اتباع العنابسة، يلفظون بالشهادة ويقرؤون الكتاب المقدس. وقد أكد أعدائهم الاشـداء أن عدداً من حيران العنابسـة، كانوا يقيمون للأطفال والصـــبية، كتاتيب وخلاوي تحفيظ وتلقين تعاليم المنتظر.

واللافت أنهم في بداية دعوتهم، كانوا متشـــددين معادين لعقيدة التخنث وغُلاة، إلا أنهم بمرور الوقت، أخذوا يتساهلون في التكاليف العقدية..

كان تشـــددهم في مراحلهم الأولى مروعاً، بســـبب ميلهم لســـفك الدماء وسبي نساء مخالفيهم وقتل هؤلاء المخالفين بدون رّحمة! لكن بمرور الوقت أخذوا ينتقلون إلى إباحة، كل ما كانوا يفتون بتعارضـــه

مع عقيدة المنتظر، بل وصل بهم الأمر؛ حد التعطيل لكل الحدود في مرحلةٍ لاحقة، مصـــرّحين أنه لا شـــيء عليهم من العبادات، وأنها رُفعت عنهم، أو غير مكلفين بها.

وأن الثواب والفوز بالنعيم؛ مضـمونان بغير صـلاة وصـوم، وأن هذه العبادات تلاعب على شـــعوب الامبراطورية الأســـيرّة، وســـفه من الخلفاء والأمراء المتعاقبين منذ قرون. وكانوا يدعون أن شـــيخهم فهمو زايد العنبسي، قد أوصاهم صرّاحة:

"افعلوا ما شيء تم من المعاصي، فقد تحملت وزرها عنكم"

ورغم زعمهم بسقوط العبادات عنهم، إلا أنهم في أحيان كثيرّة، كانوا يؤدونها.. إما رغبة أو تسـتراً، وكان نهجهم في الجنس غريباً، إذ ادعوا أنه من أجل التعبد. كما أشـــاع خصـــومهم، الذين جزموا باباحتهم العلاقات الحميمة، التي كانت على رأس المأمورات عندهم؛ بل ذهب بعضهم للقول إن فاتحة كتابهم الطلسم المكتوب بماء الذهب، تتضمن:

"لا يحل لامرأة تؤمن بالله، أن تمنع فرجها إلا على أبيها وابنها، ويحل لها إباحته لمن سواهما".

كما تُنسب إليهم أقوال من قبيل:

"المرأة كالسجادة، صل وأعط أخاك يصلي"

"ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ورأس ذلك زوجته"

وبحسب ما ورد في بعض الروايات، فإن الممارسات الحميمّة عندهم، كانت لا تأتي من قُبيل الاستحلال فقط، ولكنها ممارسة تعبدية، الغرض منها إماتة القلب من الغيرّة على شيء دون الخالق.

بل وتعتبر عندهم من أعظم القُربات، ذلك أن النقيب، إذا أراد رياضة المريد وإماتة نفسه، وأن يبلغ بها مقام الفناء، يأمره أن يأتي بزوجته، فيأتي المُريد بزوجته إلى محضر النقيب والفقرا.

فيسطح المريد في الأرض، وتنبطح زوجته عليه، ويأتي النقيب فوقهما منبطحاً على الزوجة يضاجعها، حتى إذا قضى وطره منها، جاء

الفقرا واحداً واحداً، بحسب مراتبهم من فهمو زايد، حتى يقضوا اوطارهم جميعاً، فإذا فعل المُريد ذلك، قالوا قد بلغ الرُشد وقد ماتت نفسه.

وكان لهم كذلك عدد من الطقوس الأخرى، كليلة الكهف، التي يدخلون فيها بالأبكار، وزواج الكبيرة بالرضيع.

وليلة الكهف هي ليلة الجماع الجماعي، والتي تعود الى ممارسات تعبدية، ومراسم جنسية قديمة، كانت سائدة قبل مجئ المنتظر.

كانت هذه الليلة تقام مرّة إلى ثلاث مرّات في السنة، وكانت تُعرف عند بعض طوائف المقدس سرّه، التي انقسمت مبكراً على طائفة صانع الفخار بالغلطة؛ وكانت تجري في نهاية الخريف، إذ يجتمع رجال القبيلة ونسائها في كهف، بعد أن يتم اختبارهم على يد القادة المقربون من المقدّس سرّه، للتأكد من عدم وجود غريب بينهم، ثم يتم إطفاء المصابيح والمشاعل، للقيام بما شاءوا بينهم.

وعند طوائف أخرى منهم، يُستدعى الرّجال والنساء إلى خيمة أو منزل كبير، ويقف الرّجال صفاً واحداً قبالة صف النساء، بعد أن

يكون كل رجل؛ قد اختار المرأة التي ستقابله، شريطة ألا تكون زوجته، وعند نزول الليل، يرخص المقدّس سرّه لضيوفه، الاختلاط بمن شاؤوا من النساء.

وكانوا يمارسون نوعاً قديماً من الزواج، إذ يختلي المقدّس سرّه بالعروس البكر، مقابل أجر يدفعه له والدها والعريس.

وقد يختلي بالعروس إذا كانت ثيباً كذلك، إما لتجنيس أجنبية من خارج القبيلة، وهو العرف الذي كان سائداً عند بعض القبائل النبشية والحنجورية الجبلية بالخصوص، الذين كانوا يعملون مبدأ الزواج اللحمي، وإما لـ استبراء امرأة سبق لها الزواج من أجنبي.

وهناك من يقصر حق الغلطة على الأولاد المنحدرين من صلب المقدس سرّه شخصياً، او من سلالته. وكانت بعض القبائل التابعة للطائفة، تجتمع ليلة الخميس والأحد الأولين من كل شهر، في احتفال يحضره الرّجال والنساء والأطفال، في مكان يدعى الملعب، ويختلط الرّجال بالنساء، ويضربون على الآلات الوترية ويرقصون جميعاً.

وعندما ينتصف الليل، ينفض الاجتماع، بعد أن يستضيفوا المقدّس سـرّه وبعض مريديه، للغلطة في بيوتهم بقضـاء الليلة معهم، حيث يبيحون له ولمريديه في هذه الليلة، زوجاتهم إكراما لهم.

كذلك زواج الرضـيع من البالغة، الذي يعتبر من الطقوس المهمة عند الجمريين ونبشـيين الصـحراء، إذ أنه عندما ترزق إحدى الأسـر الصـحراوية الموسـرّة بطفل، يمكن لذويه أن يزوجوه إن شـاؤوا ذلك، من يوم مولده أو عندما يبلغ من العمر شهرين أو ثلاثة.

وتكون الزوجة من بنات الأسر المعسـرّة، في العقد الثاني من عمرها. بمجرد إتمام الخطوبة، حتى تنتقل إلى منزل الزوجية، ويحضـر المقدّس سرّه ليلة زفافها.

كما أباحت هذه الطائفة للزوجة، ممارسـة الجنس مع غير زوجها الرضيع، مع نسبة ولدها إلى الزوج الرضيع.

واجه المقدس سـرّه ومن خلفه أبناؤه، اتهامات التبديع، سـواء من جماعات وطوائف أخرى لمغالاته في الدعوة إلى التحرر من التقاليد العرفانية، التي هيمنت على البلاد الأسـيرّة آنذاك، ورفع كثير من

الفقهاء والفرق المتصوفة شعاراً في وجهه، لصد الناس عنه، بقولهم إن طريقته:

"تسد على الناس باب الفتح".

وسواء كان ما أشيع عن طائفة المقدس سرّه، وفيما بعد العنابسة صحيحاً أم محض افتراءات، نجد أن ذلك لم يمنع المقدس سرهم من بني الأعتم، احتكار السلطة والثروة، كما لم يمنع العنابسة من النمو والتمدد، بل لعب العنابسة أدواراً سياسية خطيرة، بعدما تحوّلت الطائفة لقوّة بارزة، أدلت بدلوها في الحوادث، التي كانت تعرفها البلاد الأسيرّة داخل الامبراطورية المترامية الاطراف، في أوج صعودها وتوسعاتها ما وراء المحيطات والأنهار.

إلى أن تفرقت سلطة خلفائها وأمرائها أيادي سبأ، واستبدت الزوايا والطوائف المتعددة، بأمور الدنيا والدين، وانقسمت البلاد إلى دويلات وإمارات صوفية وغنوصية والحادية وغيرها.

أمام هذا الامتداد الكبير لنفوذ العنابسة، لم تنكسر شوكتهم إلا بعد معارك ضارية خاضها ضدهم صانعي الفخار، أجبرتهم على التقهقر

والانحسار والانكفاء على أنفسهم، لكن الاستمرار في ممارسة طقوسهم على نحو سرِّي، أو خاص بعيداً عن أعين البصاصين والعسس والمتربصين.

في ســـجن القلعة حيث يقعْ الخزين ككلب أجرب، تنهد تنهيدة طويلة؛ وهو يقول للسجين الغرّيب:

"هــا أنا قــد أعترفت لك.. لرجل لا أعرفه بحكايتي مع موفد صانع الفخار الشاب الرّخو"

نظر إليه السجين الغريب بعطف، وربت على كتفه برفق وقال:

"لا تحزن"

وكان الخزين قد كف عن الحكي عند هذا الحد، وهو يلاحظ يدي الرجل ترتجفان.. فيسأله:

"وما الذي حدث لسارّة؟"

"لا أدري"

"ومبعوث صانع الفخار؟"

"تقاضى ثمن خيانته على الأرجح"

"وصانع الفخار؟"

"لابد أنه خلف كل ما حدث. لم أعد أثق به"

"أتعلم من أنا؟"

"لا"

"أنا صانع الفخار الحقيقي"

فأغشى على الخزين، واتكأ على الجدار فاقداً الوعي!

الطقوس التعبدية لطائفة العنابسة، ما هي إلا استدعاء لممارسات ضاربة الجذور، في الحضارات والعقائد القديمة، التي كانت تحتفي بإظهار وإيضاح فن العشق وفن التواصل بين الرجل والمرأة عاطفياً وجسديا. والتي اشتهر فيها عشاق أماجد كحوثرّة، الذي كان يُضرب به المثل، في شدّة النكاح فيقال:

"أنكَحُ مِن حَوثَرَة"

والذي كان يتعلل بشرود بعيره متصيداً النساء، إلى أن سأله المنتظر ذات مرّة:

"ما فعل بعيرك الشرود اليوم؟"

فيرد: "أما منذ قيدته بتعاليمك فلا"

وعلى غراره ألغز الأيادي؛ الذي شاع ذكره في المخيال الحسي القديم، حسب الأمثلة الرائجة. وتفيض المخطوطات التي يطالعها الأيهم، بالكثير والمثير عن العلاقة الحميمّة، التي لم تكتف بالحديث عن فنون الجماع، إذا تعدته إلى الحديث عن أصناف الرجال والنساء، والمحبب من ذلك وتلك، وتفاصيل الأعضاء وأحجامها،

والوصــفات أو المركبات و المقويات، فضــلاً عن الحكايات المتناثرة عن وقائع عديدة.

ويتميز من بينها مخطوط الكاماســـوترا: المتعة؛ كمخطوط عن الحب والعلاقة الحميمة، في كونه أشبه بكتابٍ مقدَّسٍ يحوّلُ الأمرَ إلى ناحية روحية.

فبقدر ما فيه من فنياتٍ تتعلق بعمليات الوطء والأوضـــاع، ينطوي على تعاويذ وطلاسِــمُ وحِيلٌ، للحصــولِ على المتعة من أوجهٍ كثيرّة، إلا أن الهدف منه هو الانطلاق من المتعة الجســدية، للســمو إلى ما وراء الطبيعة، فهو بالتالي بمثابة رؤيةَ فلســـفية تؤطر وتحرك الدافع الجنسي، لدى معتنقي المذهب الفيدي .

وقد تعجب الأيهم من مِقدارِ الحرية، التي كان يكتب بها نُخب ومثقفين الإمبراطورية الصاعدة السابقونَ، في مثل هذه القضايا، التي تناولها علماء وفقهاء عصره، الذين ارتبط اسمهم بالفقه والعقيدة، في مؤلفاتٌ عدة تتحدث – دونِ مَوارَبَة– عن الفعل الجنســيّ، وعن الاستمتاعِ المباشر بين الرجل والمرأة. والرجل والرجل والمراة والمراة.

بعض هذه المخطوطات يُحدِّدُ هذِه المتعة في الزواج المتعارف عليه، لكنها أيضا لا تخلو من عروج، لذكر الحالات خارج الزواج، مثال ما نقله أحد الفقهاء عن شيخه قائلاً:

"وكان شـــيخي يقول: أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت، فالزوجة على التحقيق قوت وسبب لطهارة القلب"

ويقول العنابسة، في سياق حديثهم عن السموِّ العرفاني، وثيق الصلة بالجنسِ:

"ما سُـتر كثيرٌ، وما يُسـتر في كل أوانٍ أكثر. فهل آن الأوان؛ لنعلن عن فرحتنا بأننا عاشـــقان؛ جمعهما الحب والرغبةُ المشـــتركةُ؛ في الاحتفاء بالحيّاة؟ وأن نرتشـف؛ من كؤوسـها الواعدة بالحب والمتعة والسعادة".

وبينَمَا تدعو طائفة صـــانع الفخار الأم، إلى التجرد والتقشـــف، بما يُقارِبُ مفهوم الرهبانية والزهد الكامل في الحيّاة، إلا أن العنابســـة ظلوا يتخذُون درباً مغايراً، في حالة التواصـل بين الرجل والمرأة، فهم

يَدعون للإكثار، بل حتى في الميراثِ الأكثر تشدداً، فقد كان المقدس سرّه المؤسس يقول:

"ينبغي للرجل أن يلزم ثلاثاً: أن يكون مشاءً فلا يَدَعَ المشي، فإن احتَاجَ إليهِ يوماً قدرَ عليهِ، وينبغي ألَّا يدع الأكل، فإن أمعاءَهُ تضيق، وينبغي ألَّا يدع الجماع، فإن البئر إذا لم تَنزَح ذَهَبَ مَاؤهَا"

وبخلاف المتعارَفِ عليه من حالة الزهد في المأكل والمشرب والممتلكات وعوارض الدنيا، نجدُ الترغيبَ في الإكثارِ مِن الجماع، والتحذيرَ من تركه بالكلية، حتى لا تضعف الشهوّة والقوّة الجنسية، وقد دفع ذلك الأيهم إلى التساؤلِ:

"من أين إذن جاءَ اقتِرانُ الجِنسِ بالكَبتِ في وعي نخب طائفة صانعي الفخار الجدد؟"

في ظهيرّة اليوم التالي، استدعى دكّام السجين الغريب، الذي ادعى للخزين أنه صانع الفخار الحقيقي، والذي بعد أن عاد من لقائه بدكّام تنهد بحرقة، ثم قال للخزين:

"أنت لم تصدقني أليس كذلك؟"

"كيف أصدقك وأنا أعلم الناس بصانع الفخار"

"إذاً ما الذي تظنه فيّ؟"

فصمت الخزين ولم يرد؛ فسأله الرجل:

" أتراني أحمل عاراً مكتوباً على وجهي؟"

"العفو. لا أرى شيئا!"

"إذن فلتعلم أنني بولاد الأعتمي النبشي، والد الغصين وأم نفل، وكل ما حل بكم من تدبيري وحدي، فلولا حيلتي الواسعة رّغبة في الانتقام، لما استطاع دكّام وحده فعل شيء"

شعر الخزين برّغبة عارمة في الانقضاض عليه، فقد أدرك لحظتها، أن السجين الغرّيب حصل على مبتغاه من أسرار حدثه بها.. قاوم رّغبته وقال في أسى:

"وهل أنت سعيد الآن؟"

"النار التي في داخلي حزناً على ابنتاي، لن يطفئها قتل جميع صانعي الفخار.. القضاء على طوائفهم جميعها على اختلافاتها"

تعود جذور الجماع الجماعي في تراث البلاد الأسيرّة، داخل الامبراطورية الصاعدة؛ مترامية الأطراف، إلى عصور ما قبل ميلاد دعوة المنتظر، لكن ترسخت تقاليده أكثر في عهد الخلفاء والأمراء الذين تعاقبوا على حكمها، إلى أن تفتت إلى دول ودويلات.

وأزدهر بشكل كبير في دويلات شبه الجزيرة الأيبيرية، لاقترانه بمجالس الغناء والطرب، والتي وُصفت فيما بعد من قبل غُلاة الفقهاء، بمجالس المجون. وأتى وصفها ومدحها في كتابات بعض فلاسفة وعرفانيين البلاد الاسيرّة بحميمية، لما تحمله من روح الانفتاح والتعارف الجسدي، وكذلك تم الثناء عليها من قبلهم لاعتبارات شبقية وغير شبقية عديدة.

الجماع الجماعي شكَّل منذ زمن بعيد، صورّة الايروتكية الأسيرّة في أذهان الحناجرة وبني الأعتم النبشيين، وكان يمثل قمة التفاعل الحسي، لعصور عديدة، في حين كان النصارى وقتها يخجلون من أجسادهم، ويستترون بحجاب عقيدة العبرانيين والمخلص.

وعلى النقيض من ذلك كانت مجتمعات البلاد الاسيرّة، تشكل أيقونة التسامح الشهواني، والتقبل غير المشروط جنسياً، فكانت

تكثر سهرات السمّر، التي تنتهي بلقاء جماعي بين الأسياد من جهة والجواري والعبيد من جهة أخرى، وكثُرت عمليات تبادل الزوجات بين شـــرفاء القوم، فكان الرجل يثنى على قدرّة زوجته، على مجامعة أكبر عدد من الرجال في ليلة واحدة.

أهم ما كان يغذّي ممارسة الجماع الجماعي عند الحناجرة وبني الأعتم، هو قضـــية العبد والســـيدة، إذ كان من العيب أن يطأ الحُرّة عبد أســـود، رغم علمها بفحولته وشـــدته، فتحث زوجها بمواربة؛ عن رغبتها في العبيد من قبيل المتعة، فيُحضـــر الســـيد، العبد الأســـود لزوجته، ويأمره بوطئها أمامه، وهو ما شـــكّل أهم لوحة ايروتكية في البلاد الأسيرّة.

الأمر الذي فتح شـــهية النســـاء، فأخذن يتحدثن فيما بينهن، عن جماليات الجماع مع العبد الأســـود، لما يملكه من فحولة نادرّة، وإن كان عيباً أمام الملأ، وهكذا كثُرت عملية تبادل العبيد من أجل امتاع النســـاء، في حضـــور أو غياب أزواجهن، خاصـــة في الحفلات السرّية النُسوّية، في بعض بلدان الإمبراطورية مترامية الاطراف.

وعندما تأمل الأيهم الصـــور الايضـــاحية، التي كشـــفت عنها المخطوطات، لاحظ أن معظمها على شـــاكلة جماع جماعي عربيد، حيث تظهر العلاقات المثلية بين النســـاء، كما تظهر عمليات تبادل النساء، ووطئ امرأة من قبل رجلين في نفس الوقت.

كما أن بعض الصور فيها حيوانات، إذ أن المضاجعة لم تكن مقتصرة على المغايرين، بل امتدت إلى المثليين والحيوانات، وهو ما شـــكَّل تنوعاً في ايروتكية البلاد الأسيرّة.

يظهر التلذذ باستخدام العنف، واستعذاب الطرّف، الذي يقع عليه العنف كذلك.. وكل الرّغبات المخفية، كانت تظهر بوضـــوح في حفلات الجماع الجماعي، حيث يتم تناول الخمور والحشـــائش المخدرّة في هذه السهرّات؛ خاصة عند العنابسة.

وقد عُرف حيران المقدّس سرّه في البلاد الأسيرّة، حبهم لجلد النساء في هذه الحفلات الجماعية المثيرّة، كما عُرف بعض الأمراء؛ بحبهم لجماعٍ مماثل، في خضـــم إقامة أمهاتهم لحفلات من هذا النّوع، بُغية حثهم على نكاح الجواري، فكانوا يختارون العبيد الذكور لمجامعتهم، وهو ما شكَّل صدمة للأمهات اللاتي عمدن إلى تكتم الأمر.

كما أن الحناجرة وبني الأعتم استمدوا ثقافة الكاماسوترا وطوّروها بطريقتهم الخاصة، إذ أن بعض اللوحات في مخطوطات الأيهم، تكشف أنهم كانوا أكثر شبقية وأكثر انفتاحاً، من اللوحات التي حملتها الكاماسوترا نفسها، وذلك لخبرّة بني الأعتم خصوصاً، وتفننهم في إضافة المؤثرات الجنسية أثناء العملية.

وبمرور الوقت مع اشتداد قبضة طائفة صانعي الفخار الأم، في بعض العصور، تم التنكر للجماع الجماعي، بإنكار جذوره الضاربة في تاريخ هذه المجتمعات، لكن هذا لم يمنع محبيه من مواصلة ممارستهم، حيث يجسدونها في الحمامات العمومية.

خاصة العلاقات المثلية بين النساء، التي تتطور من ممارسات لطيفة، إلى الوصول للمناطق الحميمّة.

كما أن الحدائق العمومية والمراحيض، كانت أماكن للممارسات المتعددة بين المثليين والمثليات، في أوقات متأخرة في الليل.

فقوّيت بذلك مجموعات تبادل الزوجات، والديوثين. لتُبرز تعلق كثير من هذه المجتمعات بالجماع الجماعي، لكن باســـتحياء مخافة رّقابة المجتمع والعناصر المتشدّدة بين صانعي الفخار.

وقتئذ اهتم الفقهاء بالتنظير في العلاقة بين الرجل والمرأة، إن كانت تلك العلاقة تفضـــي إلى الزواج، وهو ما أسموه بالنكاح، أو الباه أو كانت تفضـي إلى الممارسـات غير الشـرّعية، في علاقة حب وهوى وعشق وهيام فحسب. فسكبوا الكثير من الحبر في كتب الحكايات:

"روى أن أميراً بطلت عنه القوّة، فزوج عبداً من مماليكه جارية حســـناء، وهيأ لهما مكاناً بحيث يراهما ولا يريانه، فعادت قوّته بمشاهدة أفعالهما"

كما أن أهل بعض البلاد الأســـيرّة، كانوا يطربون أيما طرب، عندما يسمعون المغنية أو المغني، وهو يردد:

"دق الباب وجانا؛ وأنا جريت ليه عريانة،

دق الباب بشدة، وأنا جريت ليه مستعدة"

أو "ساقيها الندى ورويانة.. ما شفتوها،

دا الكمل صبرنا وآذانا،

شفتو عيوني في سيقانها.. ما شفتوها،

واحدين قالوا شفنا الشامة.. ما شفتوها،

واحدين قالوا ضامر هافا،

براي بجيد أوصافها، وسادل ديسها لي أكتافها،

ما شفتوها يا خلاني".

أو "سيسبان عودك منظم، شمعدان نفسك مختم، البرتكان نهدك مدردم.. القمر بوبا عليك تقيل".

أو على الأسنان سكر

وفماً كالأسد الجوعان زمجر،

يرسل الهمس به لحنا معطر

وينادى شفة عطشى،

وأخرى تتحسر، وعلى الصدر نوافير جحيم تتفجر،

وحزاماً في مضيق،

كلما قلت قصير هو،

كان الخصر أصغر"

حتى أن أحد صانعي الفخار، وهو في مسيده في قلب البلدة القديمّة؛ عندما سمع أحد المغنين، وهو يغني في حفل تحمل نسائم الليل أصواته:

"يا ليل أبقالي شاهد على نار شوقي وجنوني"

انتفض في خلوته وصاح في (حيرانه):

"دا منو البشهد في الليل دا؟"

فجروا إليه وقالوا له:

"دا ولد صعلوك ساكت يا سيدنا"

فتنهد الشيخ وأطرق ملياً ثم صاح فيهم:

"تمشوا هسع، تجيبوا لي"

وتردد المغني كثيراً في المجيء، خشـــية أن يزجره الشـــيخ ويعنفه على الغناء، وغشيان الحفلات. لكن تمكن رفاقه من إقناعه بالذهاب، إلى صانع الفخار ومعرفة ما يريده.

وعندما دخل المغني على صـانع الفخار في مسـيده، وكان الأخير في خلوته يجلس على التبروقة، سأله: "أنت البتشهد في الليل"

فرد عليه المغني: "نعم يا سيدنا"

فقال له: "غني لي الغنا الكت بتغني فيهو دا"

وتردد المغني مرة أخرى وأراد، أن ينشـــد أمامه الأبيات فقط. ولكن صانع الفخار أبي وأصر، على أن يغني كما كان يغني في الحفل، وبعد أن اقتنع المغني بنوايا صانع الفخار، وأخذ يصدح كالكروان العاشق حتى وصل إلى الأبيات:

"يا ليل أبقالي شاهد على نار شوقي وجنوني

يا ليل صار ليك معاهد طرفي اللي منامو زاهد

دنا لي سهرك وأشاهد فوق لنجيمك ظنوني

يا ليل أبقالي شاهد على نار شوقي وجنوني"

انتفض صانع الفخار إنتفاضة عظيمة، وسقط في غيبوبة عميقة، حيث أسكره طيب الغناء والوجد الليلي، وانجذب إلى عالم اللانهاية، وهنا وجد المغني الفرصة المواتية، فتسلل بهدوء من الخلوّة وفر لا يلوي على شيء!

كان دَّكام يرغب فـي دخول البلدات والحواضر، التي استولى عليها صـانعي الفخار العنابسـة والجريديون تحت أقواس النصـر، ووسـط الرّايات والأزهـار المقطوفـة لتوهـا.. لقـد مـلّ رؤيـة الجنكويز الـذين جلهم من رفاقه قطاع الطرق القدامى يهربون، والنسـاء الحوامل يجهضـن، والصغار يبكون لدى مروره. ولهذا كان مصراً على أن يحل محل المقدّس سرّه.

اقترح عليه النحيف الرّخو الذهاب إلى دار الريح، حيث يُعتقد أن صانع الفخار وأهم قادته يختبئون هناك، ويلتقي بهم ويتحالف معهم، ثم يزحفوا جميعاً بجنكويزهم واتباعهم نحو البلدة القديمّة، والاسـتيلاء على القصر الجنكويزي وقتل المقدس سرّه، وكل أفراد عائلته المالكة، ومن ثم السيطرّة على الإمبراطورية مترامية الأطراف.

"كل شيء ممكن"

تماماً مثلما اسـتولوا من قبل على أشـياء كثيرّة دون اسـتئذان، لكنه كان يرغب في كسـب تعاطف الناس. على الأقل ريثما يوطد أركان حكمه.

قال موجها حديثه الى الهيف، وهو يتفرس تعابير وجهها:

"لكي أحقق ذلك لابد لي من التفاوض مع صانعي الفخار، واقتسام السلطة معهم، وهكذا كما ترين أنا لا أريد بكم شراً"

فلم ترد.

"أريدك أن تبيعي هذا الكلام لصانع الفخار تمهيداً، للقائنا. أعلم أنه لا يثق بي، ولكن الأيام القادمة ستثبت صدق نواياي"

ثم التفت إلى النحيف الرّخو وقال:

عاملها بلطف وأوصلها إلى منزلها، ولو احتاجت لأي شيء لا تتردد في تلبيته.

إن ما جعل الإمبراطورية تتخلخل وتهتز، هي كل تلك الطوائف، التي عملت عمل الدود، فنخرت جسم الدولة شيئاً فشيئاً، فيما المقدّس سرّه غير آبهاً لما يجري، لا يكف عن التفلسف؛ حول أمور معرفتها لم تكن بحاجة لكل هذه الفلسفة، إذ لا يفتأ يقول:

"التناسل هو الهدّف الأول من الجِماع، لكن اللذّة الناتجة عنه تذكّر بنعيم الفردوس. ولا بأس في هذا المجال، من التذكير بأن الكتب المقدسة أوردت تفاصيل جسد المرأة، لغرض ايصال الفكرة.

فكما ورد في العهود القديمّة: "وكبرت وبلغت زينة الازيان. نهد ثدياك، ونبت شعر عانتك، وقد كنت عُريانة وعارية ... في رأس كل طريق بنيت مرتفعتك، ورجّست جمالك، وفتحتِ رجليكِ لكل عابر، وأكثرت زناك. وزنيت مع جيرانك بني مصر الغلاظ اللحم، وزدت في زناك لاغاظتي"

فالمقدّس سرّه كان يعتقد، أن العين هي منبع اللذّة الحسية، ولذلك أمر بحجب عينا المرأة عن الرّجل. وقد دون في مخطوطته، التي يتدارسها أتباعه المخلصين بنهم، تجاربه الذاتية، فهو تربى وترعرع في

حجور النســـاء، ورأى في إقامة علاقات حبّ مع الجواري والإماء، أمراً لا غبار عليه..

ولذلك أعرب عن فكرة مفادها؛ أن الجمال الإلهي ينعكس على أروع ما يكون في الأنثى"

فيما كانت الهيف تفكر فيما قاله دَّكام، مرّت سنوات تجارتها في الطلح، متجسدةً أمام ناظريها، فلطالما كُلفت بأعمال كثيرّة، من قبل عبيد وإماء وجواري وسيدات، لكن أياً منها لم يكن بمثل هذه الصعوبة.

ومع ذلك لم تجد الشجاعة للرفض، لأنها خافت أن يطعنها النحيف الرّخو بسيفه، الذي كان ممسكاً بمقبضه طوال وقت محادثتها مع دَّكام.

أو أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك، كأن ينفجر دَّكام، فيقطع رأسها متلذذاً بتدحرجه تحت قدميه، فيتراكله مع النحيف الرّخو يلهوان به. فليس هناك شيئاً جيداً يمكن توقعه، من قاطع طريق وخائن سابق.

لكنها مع ذلك استشفت بغريزة الأنثى، أنه كان صادقاً. كما أنها رغبت من جهة أخرى، في مساعدته. لأنها أحست للمرّة الأولى في حياتها كامرأة، بخفقة دفء في جلدها، وبرغبة جامحة في لمس هذا الرجل، وفي أن تجوبه بيديها، وأن تضمه بين ذراعيها، وعرفت دون أي ريب أنها قد أحبت دَّكام.

وعند هذه النقطة أطل وجه الخزين، مهيمناً على تفكيرها، وأدركت للمرّة الأولى أنها تحبه هو كذلك بجنون، ولم ترى غضـــاضـــة في أن تحبهما معاً. أمضت الهيف طوال المسافة إلى دارها، متناهبة الأفكار والأشجان..

كان قســـطاً كبيراً من الليل قد انقضـــى، عندما وصـــلت دارها. ووجدتها خلواً من الخزين، الذي لم يخطر على بالها أبداً، أنها لن تجده في انتظارها، مسكوناً بالخوف عليها والهلع.

وبعد أن انصـــرف النحيف الرّخو ورجاله بمدة، من الزّمن، سمعت صوت جهة إحدى النوافذ. وإذا بالخزين يتسلل منها، ليقف أمامها:

"أين كنت؟"

"كنت أراقب الدار من الخارج، وأتاكد أنهم ذهبوا.. هل أنت بخير؟.. ماذا فعلوا بك؟"

وحكت له كل ما جرى معها...

"أية شياطين أصابتك أيها القائد؟"

سـأله النحيف الرّخو في الأيام الأولى مرّات كثيرّة، فقد كان يتناهبه الفضـول حول فحوى الرسـالة التي همسـت بها الهيف في أذنه، وألح عليه إلى أن قال دَّكام أخيراً، أن سـبب حالته المعنوية تلك هو الرسالة.

فقال النحيف الرّخو: "أخبرني بها، فقد تفقد بذلك سلطانها عليك"

ورد دَّكام: "لن أخبرك بها، إنها لي وحدي. لا أستطيع"

لم يشأ أن يقول له أن صانع الفخار يطلب رأسه، ليس فقط لخداعه للخزين، أو ثاراً لمبعوثه الذي قتله وانتحل شـخصـيته! بل لاكتشـافه أنه جاسوس مثله؛ زرعه المغول!

فيما كان النحيف الرّخو، ولتعبه من رؤية قائده يذوي يوماً بعد آخر، قد قرّر أن يحمل سـيفه وكنانته ويخرج، بحثاً عن بائعة الطلح؛ التي اختفت منذ ذلك اليوم، كأن لم يكن لها وجود أبداً..

اقتفى آثارها فـــي دار الرّيح كلها، إلى أن عرف مخبئها.. فانتظر إلى أن حانت فرصـــة مناســـبة، أثناء خروجها من الدار فســـدد ســـهمه نحوها، وقال آمراً:

"ستأتين معي"

لقد كانت تنتظره. صـعدت بصـمت على ظهر الجواد. لم يتبادلا ولا إيماءة واحدة خلال الطريق كله. وبعد يومين وصـــل النحيف الرّخو إلى المعسكر، وقاد المرأة أمام العسس، لتمثل بين يدي القائد دَّكام.

"أريد أن أعرف الآن سر الرّسالة"

قال وهو يضـع سـيفه على عنق الأسـيرّة. تبادل دَّكام والهيف بينهما النظرّات طويلاً، وتفحص كل منهما الآخر عن بُعد، وحينئذ أدرك الرجال أن الوقت قد فات؛ للتخلص من ســـلطتها عليه، لأنهم اســـتطاعوا جميعهم أن يروا؛ عيني البوما اللامعتين الضـــاريتين، وهما تتحولان إلى عينين وديعتين، حين تقـدّمـت نحوّه دون أن تبتســـم، وأمســـكت بيده.. فيما كان النحيف الرّخو يســقط مضــرجا بدماء عشرّة سيوف، اخترقته في لحظة واحدة.. وحامليها يهتفون:

"إنه جاسوس المقدس سرّه علينا!"

في تلك اللحظة ظهر صـــانع الفخار أمامهم فجأة، وهو يشـــير إلى الهيف:

"بل هي جاسوسة للمغول"

2018

كولشيستر، فيرمونت

عن دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني. من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا -في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة- نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

عواقب غرف النشوة

ثلاثية الأعمى — الجزء الثاني

مع آذان الفجر؛ من كل يوم من أيام خرائف البلاد الأسيرّة، تستيقظ البلدة القديمّة منهكة، وتبدأ حركاتها الأولى؛ على وقع الرّذاذ الخفيف، العالق في فضاءاتها الضبابية الغامضة، التي تُنذر بأحداثٍ وشيكة، لا تحدث مطلقاً!

وفيما يتخلل هذا الرّذاذ، خيوط الشمس الأولى يتبدد، قبل أن يُلامس طرقات البلدة المليئة بالتعرجات والحُفر، وأكوام الزبالة.

الأهالي؛ الذين لا يجوبون طرقات البلدة؛ في ساعات الليل، خشية "الجنكويز" يكتفون بإطلاق اشباحهم، فيتراءى كل السكان الموتى، عبر تاريخ البلدة التليد.. الوثنيون، الكهنة، البرامكة أصحاب السر الأعظم؛ للمقدس زرادشت وبوذا وماني ومزدك.. الأحبار.. الرّهبان والفقهاء.. المخنثين والسحاقيات..

طيوفهم جميعا تتسلل خلسةً، من المعابد العتيقة والأديرّة، التي ترفرف الرّايات الحمراء من الحانات؛ والخمارّات الملحقة بها، يتبعون خُطى بعضهم؛ وهي تمضي بحذّر، وتنزلق داخل الأزقاقات الضيقة، تبتلعها عتمّة الدروب، المفضية لدار عاشقٍ مهجور، أو عشيقة لا تكف نداءاتها اللحوحة، تغذي بلهفتها نيرّان هذه الدور، المضاءة بمصابيح ومشاعل الزّيت الشحيحة.

فتتبدى هذه الزْقاقات والدروب، عن طيوف؛ من مروا بها ذات يوم، من سادة مسكونين بطلب المتعة، وقيان و جواري وإماء، و سبايا وعبيد مخصيين غُلبوا على أمرهم، في غزوات "النبشيين" المجيدة!

تتفتق الزْقاقات والدور؛ ذات الضوء الشحيح، عن خيالاتهم جميعاً.. وهم يمشون بخُطى متثاقلة، يتوحدون في شعر ونثر الأغربة والزنادقة، التي ترسم القبلات؛ على شفاه الفتيات الشريفات العفيفات الحرائر، اللواتي منذها ينتظرن عشاقاً فوارس، يترجلون على صهاوى جيادهم الجُرد الأدهميّة، وهي تصهل في رحم قصيدة ضالة في هذه الدروب الضيقة، المسكونة بالمجون والعتة وإرث الزنادقة المخضرمين!

الذين لطالما امتشقوا مشاعر كل الكائنات اللّيلية، التي تمتلئ بها البلدة القديمة وتفيض، منذ اللحظات الأولى لهطول المطر؛ في هضاب أكسوم البعيدة، عند العنق من رّحم البحر الملون الرّهيب!

يسبحون في شهوّاتهم، متلفعين زبد البحر.. متوسدين مويجاته الهائمة، التي تهدهدهم لآخر ذروّة، ثم تسحبهم في مدها وجزرها؛ إلى قاع النشوّة الحرون!

وعندما تتبدد العتمّة، وتبوح الشمس بمكنوناتها، يخرج أهالي البلدة من عراك الأخيلة والطيوف الليلية، متوجهين إلى سوق الشعراء، مقار العسس الجنكويزي، دار الغلاط، سوق الوراقين؛ القصر الأميري، السهل الزراعي؛ الذي يتكئ على خاصرّة البلدة، التي تنمو في امتداداتها أشجار النخيل والكروم، وهم لا يزالون يتثاءبون!

2 108120 113816

دار بسمة للنشر الالكتروني
+212 771 814 934
basma24design@gmail.com
دار بسمة للنشر الالكتروني
www.darbassma.com